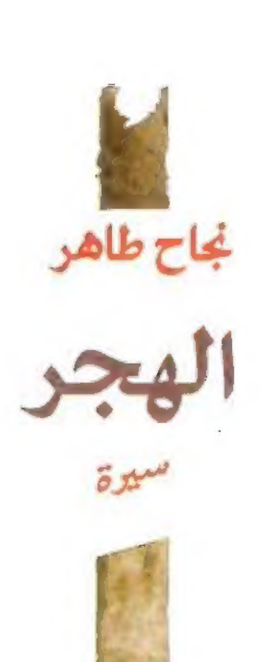
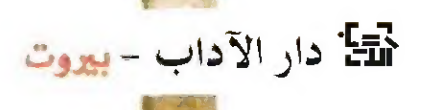

سيرة
الهجر
نجاح طاهر
دار الآداب



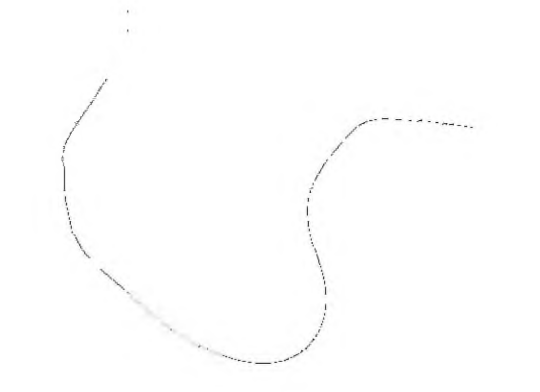
نجاح طاهر

الهجر

سيرة



دار الآداب - بيروت





...حَكَرة... بَكَرَة

قال لي ربّي عدّ للعشَرَة

واحد... اثنان... ثلاثة...

أغمض عينيّ وأشدّ على أجفاني،

أقف في حديقة بيتنا الكبير، على رجل واحدة.

الشمس عموديّة، وأنا ورِجلي المتصلّبة على الأرض نحاول الكفّ عن التأرجح، لأجد توازني.

أشدّ على أجفاني أكثر فأكثر، وتتدفّق الدماء بقوّة إلى قدمي المتصلّبة. فكرة واحدة تتملّك رأسي،

أمنية واحدة تستحوذ على عقلي الصغير:

ـ لو أستطيع أن أطير!

ـ لو أطير!

أسمع صراخ أمّي من داخل البيت، وجلبةً شديدة.

أُنزل القدم الأخرى إلى الأرض وأركض إلى داخل البيت،

إلى قاعة الاستقبالات الشاسعة في الطبقة الأرضيّة.

أركض بين ستائر الموسلين البيضاء، المدلاّة من الأعمدة التي تحمل القاعة،

أركض إلى أقصى الجهة اليمنى.

هناك... الصورة التي طالما تصدَّرت قاعات الاستقبال في بيتنا وملأت طفولتي قصصًا وحكايات عن الرجولة والاعتزاز بالنفس، والصرامة الشديدة مع النساء،

الصورة التي جسَّدت المهابة والجبروت والكبرياء.

هذه الصورة كانت ملقاةً على الأرض، وقد تناثر حولها الزجاج المسنّن.

وقفنا، أنا وأختي الصغرى، وسط الزجاج نردِّد بهلع و نكران:

ـ أستغفر الله العظيم!

ـ أستغفر الله العظيم!

كانت الصورة لجدّي الكبير كامل الأسعد.

إخوتي و أنا كنّا نكبر في هذا البيت، نرتعد من مجرّد النظر إلى عينيه الثاقبتين وشفتيه المزمومتين تحت الشارب المعقوف، وفي اعتقادنا الراسخ أنّه كان هكذا طول الوقت شاهدًا ورقيبًا على ما يجري في بيتنا وفي عقولنا.

كامل الأسعد من عشيرةٍ جاءت إلى جبل عامل، و كان يُسمّى بلاد بشارة، من بادية نجد في زمن صلاح الدين الأيّوبيّ، أي في أوائل القرن الثالث عشر.



خليل ابن اسعد الخليل بن خليل الناصيف. بن ناصيف النصار الذي انتهت اليه رئاسة العشائر بعد وفاة علي بك و محمد بك.

الجدّ الأكبر، محمّد بن هزّاع الوائلي القحطانيّ،من رؤساء قبائل عنزة، هو أوّل من جاء بلاد بشارة، والأمير عليها يومئذٍ بشارة بن مقبل القحطانيّ.

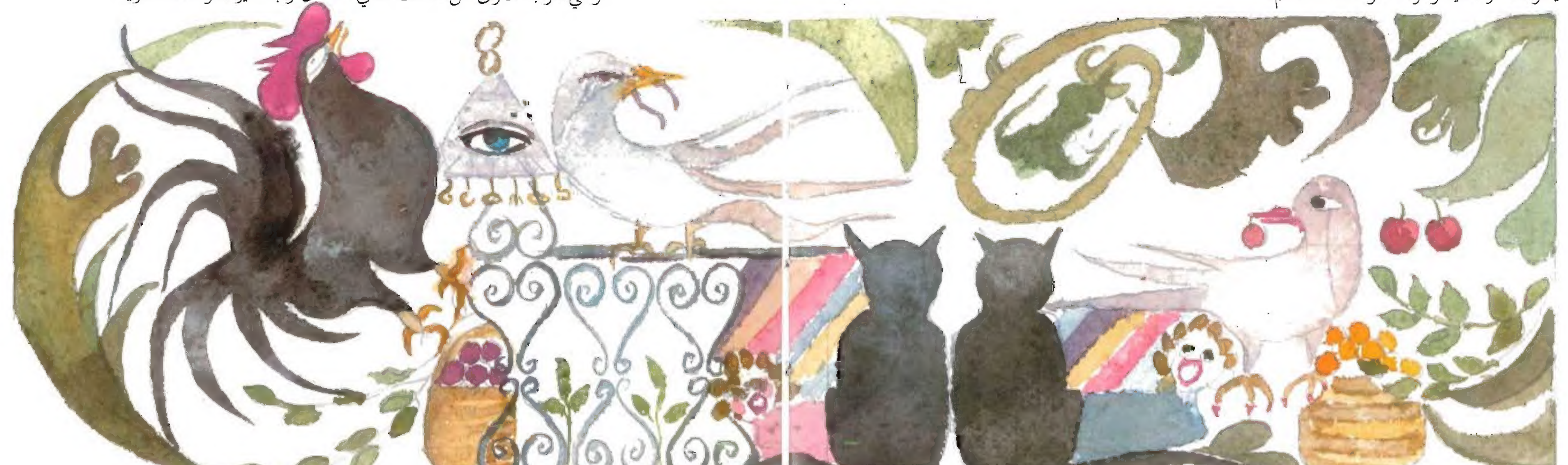
"ساق محمّد بن هزّاع حربًا على القحطانيّ، قامت على قدمٍ وساقٍ وانتهت بفوز محمّد بن هزّاع،فاستولى هذا على البلاد وحكمها وتزوّج ابنة بشارة وبقي أميرًا عليها طول مدّة حياته. وبعد وفاته تلقّاها أبناؤه وأبناء أبنائه، يقوم بها الولد بعد أبيه ومن ثَمّ ابنه"، وإذا تعذّر ذلك فالإرث يعود إلى ذكَرٍ من العائلة يكون أكثر أهليّة ومواتاةً أو دهاءً للحكم.

مرّت سنون عديدة، وتوالتِ الولايات، وحفل تاريخ المنطقة بحروبٍ وأحداث كثيرة. حروب صغيرة وحروب كبيرة، وصراع على السلطة، وتقلّبات وثارات عائليّة و ثارات شخصيّة، وأيّام رخاء وأيام شحّ، وحكمٌ عادل وحكمٌ ظالم، حتى جاء زمن كامل الأسعد الذي ورث الزعامة عن أبيه خليل، متصرّف لواء البلقاء (نابلس) إبّان الحكم العثمانيّ (ولم يكن هو أكبرَ أبنائه). كان قدر كامل أن يُولد في زمن التحوُّلات الكبرى، أفكارًا وأحداثًا واختراعات.

الشيخ محمد عبده

وُلد في بلدة الطيبة، في جبل عامل، عام ١٨٧٠م. تخرَّج من المكتب الملكيّ الإعداديّ في بيروت، وكان يُدعى بالمدرسة السلطانيّة برئاسة الشيخ محمّد عبده، وكان الأوّل والأنبه في دفعته. عُيِّن مديرًا للنبطيّة عام ١٩٠٣م، ولكنّه استقال، ثم انتُخب عضوًا في المجلس العموميّ في بيروت، ثم عضواً في مجلس المبعوثان (مجلس الأمّة العثمانيّ).

أحرز رتبة سعادتلو، أي صاحب السعادة في عصر السلطان عبد الحميد؛ وهي الرتبة الأولى من الصفّ الثاني، تعادل رتبة أمير اللواء العسكريّة.







كامل الأسعد في شبابه
على صهوة فرسه البيضاء
في بلدة الطيبة.
حول العمرة كان يلتف
حوالى 600 رجل ما إن
يلمحوه خارجاً أو يسمعوا
خطواته حتى يعلو صوت
النفير و يرفرف البيرق في
يد الخيال.
أحبّ رحلات الصيد وكان
يرافقه أثناءها العشرات
من الشباب اليافعين
كشاشين الحجل، وحوالى
ستين كلب صيد.

من وثائق الخارجيّة الفرنسيّة

رسالة من مدير قنصلية فرنسا العامة في بيروت السيد كولوندر إلى رئيس الوزراء الفرنسي بوانكاريه.

لدى افتتاح المرحلة الانتخابيّة قدّرت لي الفرصة لعقد صلاتٍ مع أحد أهمّ النافذين في طائفة المتاولة، كامل بك الأسعد، وكسبِه كما آمل إلى جانب فرنسا.

هذه الشخصيّة تتمتّع في منطقة بلاد بشارة التي تمتدّ بين صيدا ومرجعيون وحيفا، والتي يُشكّل المتاولة أغلبيّة سكّانها، بشهرةٍ هائلة؛

فكامل بك الأسعد يحكم كسيّد مُطاع على حوالى ٢٠ ألف نفس، يُطبّق القانون في البلاد، يُثبت الأمن أو يخلّ به إذا أراد ذلك. وينضوي تحت حمايته مقابل غرامةٍ شرفيّة كلُّ من يسكن في منطقته. وقد أبدى دائمًا بعض الليبراليّة والمواقف المتفهّمة حيال المسيحيّين. وقد أكسبته طبيعة مشاعره تجاههم، تعاطفهم معه ....

إن تقرب كامل الأسعد من فرنسا لهو أمر ثمينٌ ذو معنى. فهو يحقق لنا نمواً ملحوظاً في النفوذ الفرنسي في منطقة كانت حتى هذا الحين بعيدة تماماً عن تأثيرنا، كذلك يحقق لنا مساندة حوالي 7000 محارب في وقت الحاجة. وهو يدل فضلاً عن ذلك أن نفوذ فرنسا لا يضعف في سوريا.

Coulondre

١٤ تشرين الأول ١٩١٢

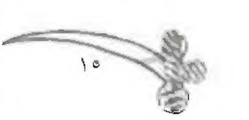


حمل زمن أفول القرن التاسع عشر وبزوغ القرن العشرين، في أحشائه، وعودًا وأحداثًا جسامًا. كأنَّ الأرض بمن عليها كانت حبلى بتغيُّرات كثيرة وأفكارٍ وآمالٍ وليدة.

السلطنة العثمانيَّة، وبعد حكمٍ دامٍ ٤٠٠ عام، أصبحت تُسمَّى برجل أوروبا المريض. ولأنَّ مرضها كان لا أملَ في الشفاء منه، تقاسمت بريطانيا وفرنسا إرث السلطنة في ما بينهما، وقرَّرتا مصير البلاد والعباد باتّفاقيَّتين "سرِّيَّتين": سايكس بيكو، تشرين الأول عام ١٩١٦ ووعد بلفور عام ١٩١٧.

عام ١٨٩٥ سيَّرت الشركة الفرنسية، العثمانيَّة سكك حديد دمشق وحماه وامتداداتها DHP أوّل قطاراتها بين بيروت ودمشق وحوران. وكأنَّ هذه القطارات حملت معها سعيرًا من الأفكار والأحداث تناقلتها في المنطقة، فأصبحت تكرّ كحبّاتِ سبحةٍ في يدٍ مجنونة.

سافر كامل بالقطار مرارًا إلى أوروبا ومصر والآستانة. وتزوّج زيجته الأولى من مريم العبد الله من الخيام. وكانت عزوتها أربعة عشر أخًا من الذكور، لكنّ مريم لم تنجب إلاّ البنات: فاطمة جدّتي و خديجة.



سنة ١٩١٤ اندلعت الحرب العالميّة الأولى. وفي تشرين الثاني من العام نفسه دخلت السلطنة العثمانيّة الحرب إلى جانب ألمانيا. وكأنّ كل ذلك لم يكفِ؛ فقد اجتاح الجراد المحاصيل الزراعيّة عام ١٩١٦، وعمّت المجاعة وتفشّت الأوبئة.

لم يصدِّق كامل أنَّ في جبل عامل أيضًا سُجِّلت حالات أكل لحوم آدميِّين.

كأنَّ العالم كلّه كان في مرجلٍ يغلي، حتى "الأفكار كانت في غليان شديد" كما رأى المليك فيصل عندما أتى دمشق. شعار "حقّ الشعوب في تقرير مصيرها" كان يتأجّج في الولايات المتّحدة. في روسيا قامت الثورة البولشفيّة عام ١٩١٧. كان التوق إلى الاستقلال، إلى السيادة، إلى الحريّة والاعتقاد بأهمّيّة الفرد في المجتمع،كانت كلّها مفاهيم جديدة، في مخاضٍ لعالم جديد.

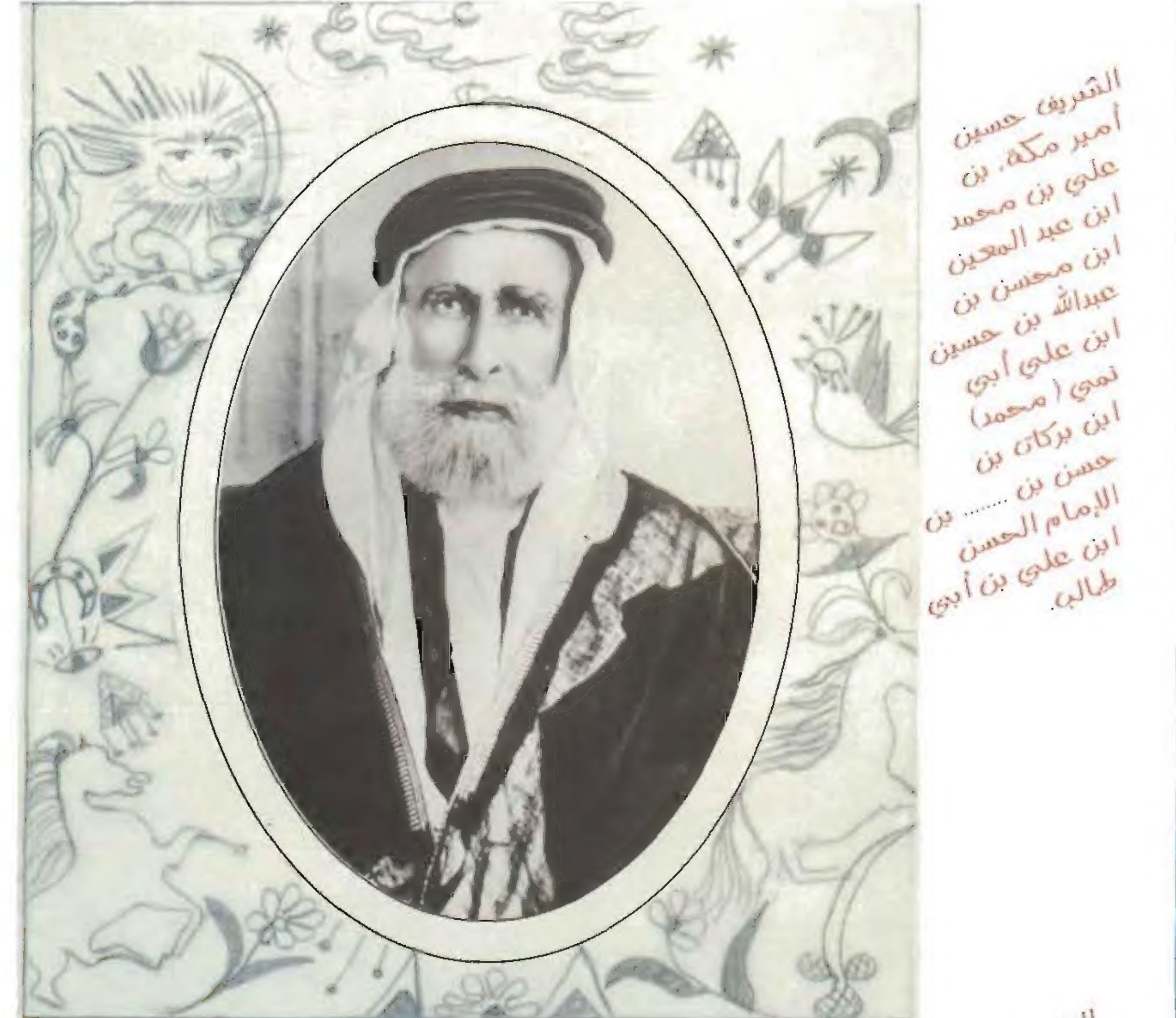
لم تكن الشعوب العربيّة ونُخَبُها في معزلٍ عمّا يجري حولها في العالم؛ فقد شُكِّلت الجمعيّات السياسيّة السِّرِّيّة والتجمّعات، وأُلصِقَتِ المناشيرُ في ظلام الليالي، وأُلْقِيَتِ الخطب وجَرَتِ المداولات في استشراف المصير. كان الشعور السائد أنَّ هذا هو زمن الحسم، وكان التّوق شديدًا إلى الاستقلال والحكم الذاتيّ والسيادة.

إنكلترة، ولرغبة في بسط نفوذٍ أوسعَ وأكبرَ، كانت تحثّ الشريف حسين أمير مكّة و تساعده على محاربة الأتراك وطردهم من الجزيرة العربية.

انتصر الشريف حسين وأعلن في حزيران ١٩١٦، بعد طرد آخر جنديٍّ تركيٍّ من مكّة المكرّمة، استقلال منطقة الحجاز، ثمّ أرسل ابنه المليك فيصل إلى سوريا لإكمال المسيرة:

في ٣٠ أيلول من عام ١٩١٨، انسحب آخر جنديّ تركيّ من دمشق، ودخلها فيصل على صهوة جواد عربيّ واستقبلته الجموع بالزغاريد والورود.





الشريف حسين أمير مكة، بن علي بن محمد ابن عبد المعين ابن محسن بن عبدالله بن حسين ابن علي أبي نمي (محمد) ابن بركات بن حسن بن .... بن الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب.



الملك فيصل مع بعض رجال الثورة العربية

بناءً على انسحاب الحكومة التركيَّة، قد تأسَّست الحكومة العربية الهاشميَّة على دعائم الشرف. طمّنوا العموم وعليكم أن تعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربيَّة.

الأمير محمد سعيد الجزائري
رئيس الحكومة العربيَّة
دمشق ١ تشرين أول ١٩١٨

في الخامس من الشهر عينه أذاع فيصل،من دمشق، بلاغًا رسميًّا بتشكيل الحكومة العربيّة:

إلى أهالي سوريا المحترمين:

أشكر جميع السوريِّين على ما أبدوه من العطف والمحبَّة وحسن القبول لجيوشنا المنصورة. والمسارعة للمبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين نصره الله.

الملك فيصل بن حسين
٥ تشرين أول سنة ١٩١٨





بلاغ أذاعته الحكومتان البريطانيّة والفرنسيّة في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨

تتعهّد الحكومتان البريطانيّة والفرنسيَّة على تشجيع العمل على تأسيس حكومات ومصالحَ أهليّةٍ في سوريا والعراق اللتين أتمّ الحلفاء تحريرهما. وفي البلاد التي يواصلون العمل على تحريرها وعلى مساعدة هذه الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلاً. والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظامٍ معيّنٍ من الأنظمة.





تجلس أمّي على الأريكة. نتحلّق حولها وعيوننا شاخصةٌ بحماسة لسماع نهاية حكاية الغول والبنت المخطوفة. فالغول كان قد اختطف البنت الصغيرة وسجنها في منزله.

يأتي الغول كلّ مساء، وعلى هذه الكتف بقرةٌ وعلى هذه الكتفِ شجرةٌ، والبنت الصغيرة فرحة بهذا القوتِ الكثير يأتيها كلّ يوم.

الحكاية وأمّي كانتا تحاولان تحذيرالبنت الصغيرة من النوايا المبيّتة:

الغول عم يسمنكِ تا ياكلك

لكنّ البنت، لغبائها وحماستها، كانت تنسى أن تحترس من الغول. وتنتهي الحكاية بأن يأكل الغول البنت الصغيرة.



لجنة كراي/كينغ

عام ١٩١٨ أرسل ولسن رئيس الولايات المتّحدة لجنة عُرِفَتْ بلجنة كراين/كينغ لاستفتاء الشعوب العربيّة عن تطلّعاتها السياسيّة. أرسلت اللجنة وفودًا إلى ما يقارب ٣٦ مدينةً و١٥٢٠ قريةً وتلقّت لا أقلّ من ١٨٦٣ عريضةً.

وفد اللجنة لاستفتاء أهالي جبل عامل جاء واستقرّ في دار بلديّة صيدا. العريضة التي أرسلها رجال جبل عامل من وجهاء وأعيان أقرّت:

"لا نرضى بغير استقلال سوريا التّام الناجز بحدودها الطبيعيّة التي تضمّ قسمها الجنوبيّ (فلسطين) والغربيّ (لبنان) وكلّ ما يُعرف ببرّ الشام، دون حمايةٍ أو وصايةٍ، تحت لواء الملك فيصل.

" ذُيِّلت العريضة بالإمضاءات وعلى رأسها إمضاء كامل الأسعد في ٥ شوّال عام ١٣٣٧ هجري.

في نهاية الاستفتاء قدّمت اللجنة تقريرًا إلى مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ حيث أوصت بأن تقام "دولةٍ موحّدة لكلٍّ سوريا الطبيعيّة يحكمها الأمير فيصل، على أن تُنْتَدَبَ عليها دولةٌ واحدةٌ". أمّا مشروع توطين اليهود في فلسطين فهو يتطلّب "مراجعةً جادّةً" و"أيّ شيء آخر سيكون بمثابة خيانة للشعب السوريّ".

في ٥ تشرين الأول عام ١٩١٨ أرسل المليك فيصل مبعوثًا شخصيًّا يدعى إيليا خوري، إلى كامل الأسعد في جبل عامل يستحثّه على مهاجمة الأتراك وطردهم من السواحل: "الآن انتهى زمن الأقوال وبدأ زمن الأفعال": قال.

عندها حضر الأسعد بدوره إلى النبطيّة بموكب حافل تحفق أمامه الراية العربيّة المربّعة الألوان، ورُفعت لأول مرّة في ربوع جبل عامل ورُكِّزت في أعلى دار الفضل "وأقيمت له الحفلات وعُقدت الاجتماعات".





في عمرة الطيبة، مريم العبد الله لم تنجب إلاّ بنتيها. جدّتي فاطمة وأختها خديجة، وكامل ضاق ذرعًا بهنَّ وبأصواتهنَّ.

ترفع عمّتي حاجبيها وتحوقل عينيها الجميلتين وتقول:

ـ كنّ كالسجينات في ما يُسمّى غرفة البنات، ما أدراك ما غرفة البنات. كانت غرفة في وسط الدار وجدرانها الأربعة لم يكن فيها حتى نافذة واحدة.

كان كلُّ شيء ممنوعًا، ممنوع خروجهنّ من العمرة، ممنوع نشر ملابسهنّ المغسولة في أماكن مكشوفة، ممنوع أن يراهن أحد ما من نافذة ما. حتى أصواتهن كانت ممنوعة من أن تصل خارج الغرفة.

في حادثةٍ يذكرها الجميع، خرجت ضحكة مكتومة، ضحكة واحدة هكذا بالغلط خرجت يومًا من غرفة البنات، وسمعت في قاعة الاستقبال حيث كان كامل يستقبل عددًا من الرجال. سَوْرَةُ غضب كامل كانت من الشدّة بحيث إنّه بعدها، ولشهورٍ، غرقت العمرة في الطيبة في صمتٍ خانقٍ "حتى النَّفَس لم تعد تجروْ واحدة على إخراجه". أضافت عمّتي.





وعد بلفور

وزارة الخارجية
في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧

عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرّته:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية. على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية القيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

وسأكون ممتناً إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح.

المخلص
آرثر بلفور

معاهدة سايكس بيكو

نيسان، أيار سنة ١٩١٦

المادة الأولى:

إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا أي دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) - (داخلية سوريا)، (ب) - (داخلية العراق) المبينتين بالخريطة الملحقة. ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولإنكلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية:

يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) ولإنكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة:

تنشأ إدارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) يعيّن شكلها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة الرابعة:

تنال إنكلترا ما يأتي:
١ - ميناء حيفا وعكا.
٢ - يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في ..

تزوّج كامل زيجته الثانية من فاطمة ابنة ناصيف باشا الأسعد. هكذا كان لقبها «بنت الباشا» ربّما لأنّ الابنة الكبرى كان اسمها فاطمة أيضًا.

ـ أحبّها.

تقول عمّتي باستسلام؛ كانت جميلة جدًّا وتعرف كيف تسايسه. "لم يرها مخلوقٌ يُخْلَقْ وهي تأكل لا ليلاً ولا نهارًا" كانت دائمًا في كامل زينتها، وقد كحّلت عينيها السوداوين ووضعت العصبة السوداء على جبينها الأبيض. وقد تدلّت منها، على طول عرض الجبين، خصلات شعر سوداء معقوصة على شكل عقارب، وقد امتلأت جدائلها بالليرات الذهبيّة.

ابنة الباشا لم تنجب ذكورًا ولا إناثًا. والحالة العامّة بقيت تتأرجح بين المطامع الاستعماريّة والمطالب الاستقلاليّة. فبعد العَلَم الخفّاق في النبطيّة بأيّام قليلة عُلِّق بيانٌ على جدران صيدا والنبطيّة والطيبة وسائر بلدان الجنوب هذا نصّه:

باسم القائد العامّ لجيوش الحلفاء الثلاثة إنكلتره وفرنسا والشرفاء منع الاجتماع العامّ والظاهرات السياسيّة من أيّ نوع كانت. ومن خالفَ ذلك عُدّ مسؤولاً ومستهدفًا للجزاء.

باسم الحلفاء حاكم صيدا العسكريّ فيجل

١١ تشرين أول ١٩١٨

وكان فيجل هذا قد جاء مع ثلّة من الجيش الفرنسيّ المنتصر في القدس، على العثمانيّين في الحرب العالميّة الأولى، وتمركز في صيدا.



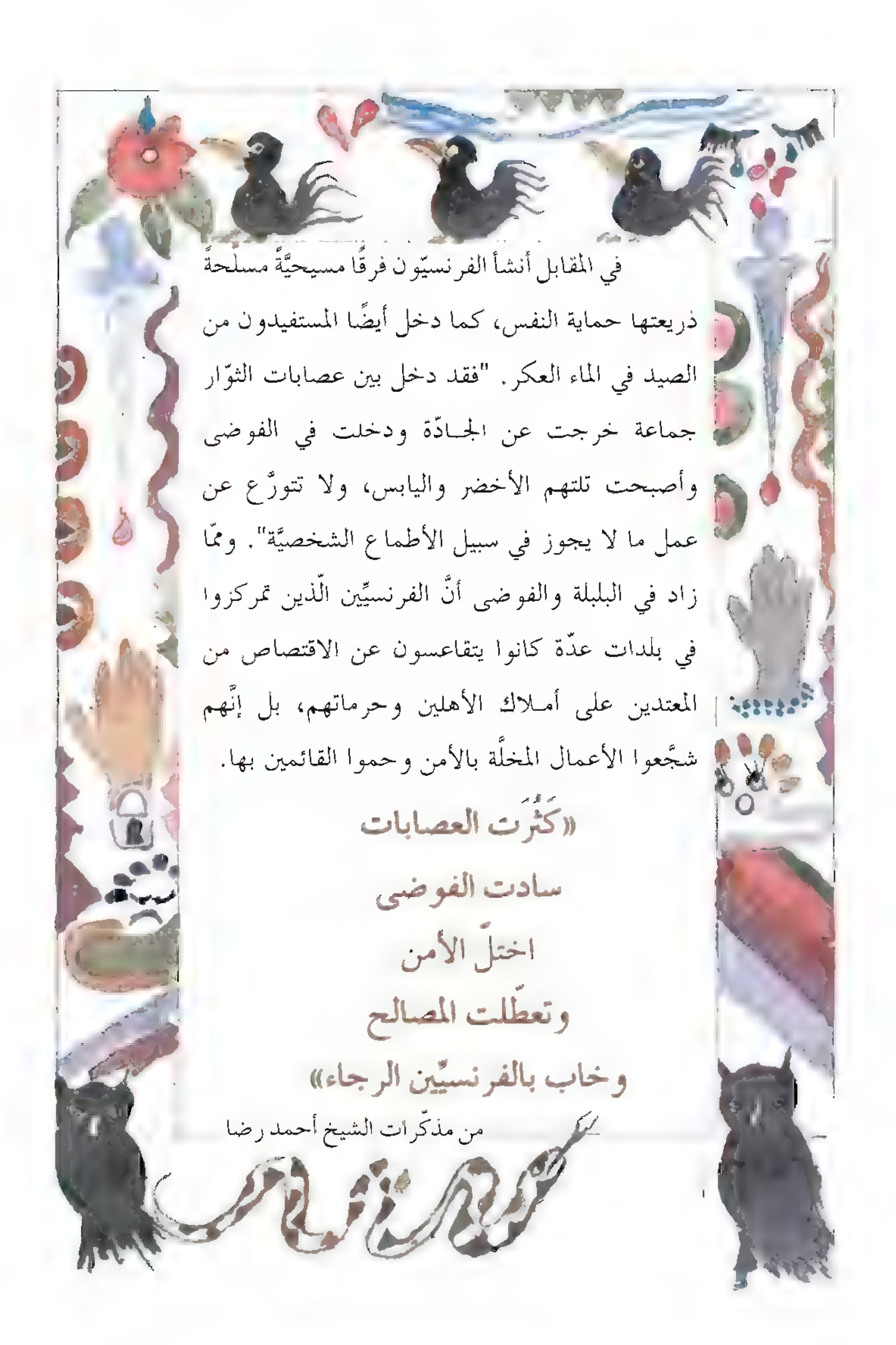
محمد ناصيف الأسعد
شقيق ابنة الباشا

"حقّ الشعوب في تقرير المصير"، "حقّ الفرد في السيادة الذاتيّة"،"الحرّيّة"، "الاستقلال"... حلّ محلّه كلام عن: "وصاية اقتضتها ضرورة التمدّن والإنقاذ من التأخّر" وذريعة "حماية الأقلّيّات".

دول الحلفاء، وبعد تذوّق طعم حلاوة النصر العسكريّ، وهزيمتها للدولة العثمانية،في الحرب العالمية، تاقت إلى تذوّق حلاوة التحكّم والهيمنة واقتسام الغنائم. الوعود السابقة للعرب ذهبت أدراج الرياح، وبقي الالتزام بمعاهدتَيْ سايكس بيكو وبلفور اللتين أُبرمتا سرّياً على حسابهم. أُسقط في يد الجميع.

لم يعد هناك مفرّ من القبول بالأمر الواقع الذي وقع وقوعًا صاعقًا على الرؤوس المملوءة آمالاً.

بقي خطّ دفاع أخير: الممانعة الشعبيّة؛ إذ نشط في جبل عامل وغيره ما سُمّي بالعصابات الوطنيّة الموالية للحكومة العربيّة. في جبل عامل كانت تُسمّى بحركة "أدهم وصادق"، أي أدهم خنجر وصادق الحمزة؛ وقد استطاعت هذه الحركة تكبيد الفرنسيّين "خسائر كبيرة، وإقفال منطقة جبل عامل في وجه موظّفيهم وعسكرهم ما يزيد عن السنة".
خُلقت حالة أشبه بالعصيان التامّ، إذ إن مشاعر سكّان جبل عامل كانت مع الثوّار وقد حاك الأهلون حول الاثنين، لشدّة الإعجاب بهما، "هالاتٍ من السحر والبطولة".



في المقابل أنشأ الفرنسيّون فرقًا مسيحيّةً مسلّحةً ذريعتها حماية النفس، كما دخل أيضًا المستفيدون من الصيد في الماء العكر. "فقد دخل بين عصابات الثوّار جماعة خرجت عن الجادّة ودخلت في الفوضى وأصبحت تلتهم الأخضر واليابس، ولا تتورّع عن عمل ما لا يجوز في سبيل الأطماع الشخصيّة". وممّا زاد في البلبلة والفوضى أنّ الفرنسيّين الّذين تمركزوا في بلدات عدّة كانوا يتقاعسون عن الاقتصاص من المعتدين على أملاك الأهلين وحرماتهم، بل إنّهم شجّعوا الأعمال المخلّة بالأمن وحموا القائمين بها.

«كَثُرت العصابات
سادت الفوضى
اختلّ الأمن
وتعطّلت المصالح
وخاب بالفرنسيّين الرجاء»

من مذكّرات الشيخ أحمد رضا



كامل كان لا يزال مصراً على الوريث الذكَر. فتزوَّج للمرة الثالثة من سكنة التامر. لكنّ سكنة هذه لم تعمِّر طويلاً في بيته، ففي الأسابيع القليلة بعد الزواج، قُتِلَ أخوها. وحينما جاءها كامل بالخبر المشؤوم أسبلت جفنيها وقالت باستحياء:

ــ فداك سيّدي، فدى رجلك سيّدي!

اشمأزّ من جوابها فطلّقها.

صادق الحمزة

تململ الجميع من هذه الحالة. وخاف العقلاء من فتنان زمام الأمور عندها دعا كامل إلى مؤتمر الحُجَيْر.

كـان ذلـك نهار السبت في ٢٤ نيسان من عام ١٩٢٠.

أُرسلت بطاقات الدعوة إلى المفكّرين والعلماء والأعيان ورجال الدين من جبل عامل.

حضر المؤتمر من الثوّار صادق الحمزة وأدهم خنجر.

هتفت الجموع عندما أتى حمزة:

يهنيك يا بيك الخليل

صادق أبو محمد لفا

تـقـدّم حـمـزة أعـزلَ بعد أن خلع سلاحه، وفُتح القرآن الكريم، وأقسم، ويده اليمنى على صفحاته، ألاّ يتعرَّض لأيّ مواطنٍ مسلمًا كان أم مسيحيًا إذا لم يكن يتعامل مع الفرنسيّين "لأنّ جهاده سياسيّ لا دينيّ". ثمّ "تقدّم كامل من صادق وأهدى إليه سيفه، وثمنه ٣٠٠ ليرة عثمانيّة إعجابًا بشجاعته قائلاً:

هذا السيف لا يليق بابن سعدى بل بابن خديجة.



من خطبة السيّد عبد الحسين شرف الدين في مؤتمر الحجير:

يا فتيان الحميّة المغاوير:

فوّتوا على الدخيل الغاصب، برباطة الجأش فرصته، وأخمدوا بالصبر الجميل فتنته، فإنّه، والله أعلم، ما سلّح فريقًا على آخر إلاّ ليثير الفتنة الطائفيّة ويشعل الحرب الأهليّة حتى إذا صدق زعمه، وتحقّق حلمه، استقرّ في البلاد بحجّة حماية الأقلّيّات.

ألا وإنَّ النصارى إخوانكم في الله وفي الدين وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم. حافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم؛ بذلك تُحبطون المؤامرة وتُخمدون الفتنة وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم: "ولتجدنّ أقربهم مودّةً للّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأنّهم لا يستكبرون" صدق الله العظيم.

أيّها المؤتمرون: علماء أعلاماً، وسراة كراماً، وفرساناً مناجيد، وفتياناً مغاوير:

إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلاّ الاستقلال التامّ الناجز المعتمر تاج فيصل العرب عاهلاً مؤثّلاً، و قائداً محجّلاً، يقيم حكومةً شرعيّة، تجعل من الوطن جبهة منيعة، ينحدر عنه السيل و لا يرقى إليه الطير.

وهذا زعيم جبل عامل وبدره (الكامل) قد أرهف للجهاد معكم عزمه، وحشد لبلوغ الهدف عدّته، فاركبوا معه كلّ صعب وذلول، صادقي العزائم، متناهي الوفاء. وما التوفيق إلاّ بالله يؤتي النصر لمن يشاء، وعليه توكّلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.



مقرّرات المؤتمر

قرّر المؤتمرون بالإجماع الانضمام إلى الوحدة السوريَّة، على أن يكون جبل عامل مستقلاً استقلالاً داخليًّا ضمن الوحدة السوريّة.

المناداة بجلالة الملك فيصل ملكًا على سوريا ورفض الدخول تحت أيّة حماية أو أيّ انتداب.

الإجماع على العناية التامّة بحفظ الأمن في سائر أنحاء الجبل لجميع أبنائه من مسلمين ومسيحيّين، والمطالبة بلزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور والمحافظة على أملاك المسيحيّين وأرواحهم ودفع الأذى عنهم.

ثم انْتُدِبَ وفدٌ من العماء للذهاب إلى دمشق لإطلاع الملك فيصل على مقرّرات المؤتمر والتداول معه في شأن ما يمكن عمله من خطواتٍ تالية.



بقيت بنت الباشا، الزوجة الثانية، هي الأثيرة، في العمرة. وكانت تتعمّد أن تنقّيَ العدس أو الأرُزّ كي يرى الجميع جمال يديها والأصابع. كما كانت تحرص على فرك قدميها بحجر الخفّان الأسود كي يلتمع بياض ساقيها أمام أعين سائر نساء العمرة.

"معظم أوقات فراغها كانت تقضيها متطلّعةً من النافذة بمنظار صغير."

ـ "ماذا كان لونه؟" أسأل عمّتي بشوق.

تغرق في عينيها لحظةً. ثم تقول: "أصفر،أصفر نحاسيّ" .

يبدو أنّ مؤتمر الحُجير أزعج بمقرّراته الفرنسيّين وجماعةً من مسيحيّي جبل عامل الذين اندفعوا وتمادَوْا في حبّ فرنسا وحمل رايتها.

(تعيش فرنسا، يعيش كليمنصو، يعيش غورو)

حملوا اللافتات وهلّلوا. ولمّا كان أنّ بعض المغنّيات في بعض مقاهي صور تغنّين بمديح المليك فيصل بن الحسين فقد "هجموا عليهنّ في الليلة التالية وهم يجهرون بالشتم والسباب للملك فيصل وأهله ولنسائه بالكلمات الفاحشة، ودخلوا المقهى وهم شاهرون أسلحتهم ولم يتحاشَوْا عن القذف في حقّ النبيّ". سرت الشائعات المغرضة كالنار في الهشيم، فحواها أنّ المؤتمر أقيم للتنكيل بالمسيحيّين وافتُعِلَتْ حوادثُ أمنيّةٌ عدّةٌ. عملت على استعار الشعور الطائفيّ، وبعث الخوف والرعب في القلوب، وخلقِ جوٍّ مَشْحُونٍ بالريبة والشكوك. وهذا كلّه أدّى إلى ما عُرِفَ بكارثة مجزرة عين إبل.

في ظهيرة الأربعاء ٥ أيّار من عام ١٩٢٠، أُطْلِقَتْ شائعةٌ مفادُها أنَّ بائعة اللبن خضرا، وهي مسلمة، قد ذهبت تبيع اللبن في عين إبل، البلدة المسيحيَّة، فأُجبِرَتْ على خلع ثيابها، ومشت هكذا عاريةً أمام شباب عين إبل ثم ارتُكِبَتْ بها الفاحشة.

ثار الشباب المسلم للشائعة واستُنْفِرَتِ الهِمَمُ. وكالعادة طبعًا، جاء من يستغلّ هذا الجوّ المحموم، خصوصاً أنّ عين إبل كانت من أغنى بلدات الجنوب، فقامت عصابة محمود الأحمد بزّي الذي "لم يُعْرَفْ عنه أيُّ عملٍ قبلاً ضدّ القوّات الفرنسيّة" بهجومٍ على البلدة وقتلت ٥٠ من أبنائها من عجائزَ وأطفالٍ. ودار السلب والنهب ولم يبقَ في عين إبل إلاّ الأحجار المحروقة.

ويقال إنّ بزّي هذا كانت له "قبلاً جلسات سَمَر ومنادمة في عين إبل قبل الهجوم".

في ٩ أيّار ذهب كامل إلى الجموع محاولاً التهدئة، ثمّ اجتمع في النبطيّة بالكولونيل نيجر قائد القوّات الفرنسيّة في جبل عامل. استعمل نيجر سياسة الترهيب والترغيب، وحاول إقناع كامل بالذهاب إلى بيروت ليصبح مستشارًا لغورو.

"ملك في عتشيت" قال كامل "ولا وزير في فرنسا".

ثم امتطى صهوة جواده وذهب مع حاشيته إلى دمشق. ثارت ثائرة نيجر وأصدر أحكامًا عديدةً منها الحكم بالإعدام على صادق الحمزة وأدهم خنجر، والحكم بالنفي المؤبّد وضبط الأملاك على كامل وأخيه عبد اللطيف وابن خالتهما محمّد التامر وآخرين. كما طالب أهل جبل عامل بدفع غرامةٍ قدرها ١٥٠ ألف جنيه ذهبًا للتعويض على المتضرّرين.

«جمع جُباةُ نيجر مبلغاً قدره ٤٨٥ ألف جنيه، دُفع القليل منه إلى مسيحيّي الجبل وسلب الباقي.

وأغرقوا أهالي جبل عامل بالفقر.» من مذكّرات الشيخ أحمد رضا





ربما كنت في الخامسة من عمري حينها، طفلة تمرض كثيرًا. كان رأسي يشتعل بالحمّى المرتفعة وأنا أرقد في فراشي في الغرفة الخاوية المغلقة. ظلال أشعّة الشمس على الجدار تشي بأنّ الوقت كان قبل ظهرٍ ما. كان رأسي ملقًى على المخدّة بإعياء شديد وعيناي الملتهبتان تحدّقان إلى الجدار على الجهة اليسرى من السرير.

فجأةً بدأوا بالظهور. الجملَ الأوّل يمشي الهويني. أسمع حفيف أخفافه على الأرض ثم الثاني والثالث والهوادج على ظهور الجمال تتمايل مع دعساتها. هل كنت أسمع صوت حداء حزين:

يا حادي العيس سلّملي على...

وكلّما ابتعدت الجمال ازداد الشجَن في الصوت. ماذا كُنَّ يُرِدْنَ أن يَقُلْنَ لي؟ توكّأت بإعياء على يدي اليسرى، وباليمنى أخذت قلمًا من مقلمتي وحدَّدت ظلال الجمال على الجدار.

كنت أريدها أن تتوقّف وتبقى معي ولكنّها تابعت السفر.

من الهودج الأخير أطلّ وجه فتاةٍ صغيرةٍ كأنّها تودُّ أن تُرْسِلَ إليّ شيئًا.

لا أزال أذكر عينيها الواسعتين.

كان جسدها الصغير يهتزّ مع تمايل الهودج، التفتت برأسها تنظر إليّ أطول وقت ممكن، وظلّ يسكنني صوت حداءٍ شجيٍّ بعيد.

أسأل عمّتي:

ـ أَحَقًّا ذهبت النساء مع الرجال بعد صدور الأحكام.

ـ ذهب "الرجال على الخيل أوّلاً، تقول، متمنطقين بصفوف الخرطوش والبنادق والقنابل".

وبعد أيّام تبعتهم النساء على الجمال بالهوادج. أسألها عن الهودج كيف كان شكله؟ ترفع زرقة عينيها الجميلتين: "صندوق خشب".

ابتدأت حملة كولونيل نيجر الانتقاميّة في ١١ أيار من عام ١٩٢٠، ودامت شهورًا مورست فيها سياسة الأرض المحروقة، وأقسى ضروب العسف والابتزاز والإرهاب. دامت الحملة شهورًا «زُهقت فيها نفوس ونُهِبَتْ أموالٌ وقُطعت السابلة». فبعد وصول تعزيزات عسكريّة شنّ نيجر حمته مدعومًا بالمدفعيّة والطائرات وأربعة آلاف مقاتل،من متطوّعة و فرنسيّين.



كانت نهاية مطاف الحملة في ٥ حزيران في الطيبة بعد أن أحرقت بلدات عدّةً، منها بنت جبيل وتبنين، ورُوّع وهُجّروا الأهالي بعد أن ناؤوا بعقوبات نيجر الجماعيّة.

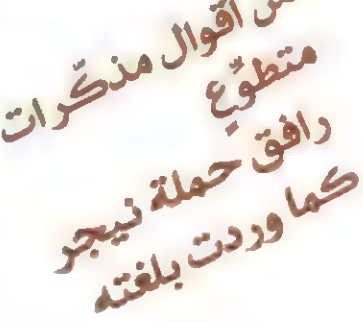




انتهت حملة نيجر في عمرة الطيبة فنُهب ما فيها من أثاثٍ ورياش استطاعوا حمله، ودُمِّر ما تعذّر حمله. حتّى علّاقة القبّعات التي لم يستطيعوا حملها لكبر حجمها فقد حاولوا إحراق خشبها الأبيض المذهّب وكسروا مرآتها التي كانت "تصل إلى السقف".

أضحت العمرة خرابة، مهجورة في مهبّ الريح، وهربت الخيل والصُّقور والبواشق التي رُبّيت و ترعرعت فيها، تحاول في ذعرها أن تبحث عن سيّدها السابق.





سافرنا من النبطيّة نهار الخميس ١٨ أيّار ١٩٢٠، فكان طريقنا على الزّواطر ومنهم إلى الجوهريّة ومنها إلى القعقعيّة. ومن بعد قطعنا الجسر وطلعنا إلى قرّون فكان وصولنا الظهر فحطنا فيها، فما وجدنا من سكّانها أحد، فنهبناها، وبعد بُرهة طرق سمعنا طلق من الرصاص، ومن بعد طلع الطلاق

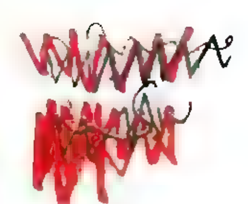
بُرهة طرق سمعنا طلق من الرصاص، ومن بعد طلع الطلاق شتّى فتفرّق الجند، وهجمنا، نحنا المتطوّعين، قدّام الجيش على العدوّ! وأطلقنا عليهم الرصاص حتّى أوصلنا هم إلى الغندوريّة، فكانت ساعة مهولة، وقد اشتغل فيها النّار حتّى أرفقنا عليهم وخلص منهم الخرطوش .. [redacted]
حتّى وصلنا إلى ضيعة تكتي بارزون،
فما وجدنا بها أحد فنهبناها ثمّ حرقناها... ولمّا طلع الصّباح أخذنا بالسّير فأقبلنا على مجدل سلم فصوّبنا المدافع عليها وهدفنا فيها عمارة محمّد بك.



[redacted] ثمّ أقبلنا على تلّ تبنين، وإلّا انصبّ علينا الرصاص حتّى أرفقنا عليهم فقتلنا منهم ثلاثة أو أربعة مجاريح ثمّ نزلنا اليهوديّة فسلّمت. وعند الصّباح سافرنا على عيناثا، فما وجدنا أحد فنهبناها وأكلنا دجاجها، ودبّينا فيها الحريق فرمّدناها. ثمّ طلعنا على بنت جبيل فما وجدنا فيها أحد فنهبناها وحرقناها ومن بعد صوّبنا عليها المدافع فهدمناها... وفي اليوم الثّالث طلعنا على يارون حرقناها...

وأمسينا قبال بلد اسمها

وأمسينا قبال بلد إسمها فارة، فصوّبنا المدافع عليها وضربناها، فكنّا نرى العالم تنفل مثل النّحل واشتغل عليها المتراليوز فقتل منهم كثير وجملة مجاريح.





بعدها... كرّت سبحة التواريخ الحزينة. في ٢٤ تموز عام ١٩٢٠ هُزم الملك فيصل في معركة ميسلون أمام القوّات الفرنسيَّة، وطُرِدَ من دمشق، فخرج كامل أيضًا منها مع رجال فيصل قبل دخول الجيش الفرنسيّ إليها.

وكان أن أذعن الجميع لمنطق قوّة الأمر الواقع الذي لا يرحم.

في واحد أيلول أعلن الجنرال غورو دولة لبنان الكبير وقد ضُمّ جبل عامل إليها.

بعدها،ذهب المطران الحجّار، مطران العرب كما كان يُسمّى، مع محمّد التامر إلى غورو واستحصل على عفوٍ عامٍّ عن جميع المحكومين.

يوم الأحد ٣تشرين الأول ذهب حاكم صور ومفتيها إلى الجاعونة حيث كان كامل لإبلاغه بقرار العفو، لكنّه أصرّ على أن يبلّغ بواسطة حاكم فلسطين فبُلّغ.



علم دولة لبنان الكبير

إعلان دولة لبنان الكبير في أيلول من سنة ١٩٢٠

الصورة الأخيرة: كامل الأسعد



أنظر إلى صورته الأخيرة وأسأل نفسي: "من هو هذا الرجل؟"

أين ذهبت تلك النظرة الثاقبة؟ كيف تبخّر كل ذلك الاعتزاز بالنفس؟

أرى أمامي عجوزًا، بديناً، بليدًا، أكاد أقول مضحكًا.

وهو؟ ماذا يدور من أفكار خلف العينين المنطفئتين والأوداج المنفوخة؟

أما زال يدور في رأسه هذا السؤال: "من هو نيجر هذا؟"

من أيّ الأصقاع أتى؟ من هو أبوه؟ من هي أمّه؟أين وُلد؟وأين كبر؟

هو، كامل ولد في الطيبة. ورثها عن أبيه الذي ورثها عن أبيه. هذه الحقول هي حقوله. هذه العمرة عمّرها أبوه. هو وُلد هنا وترعرع هنا.

أما نيجر؟ نيجر؟ لا أحد يعرف حتّى كيف يلفظ اسمه صحيحًا نايجر أم نيجرور. نيجر هذا يقرّر له حياته. نيجر هذا يقرّر أنّ هذا ليس بيته وهذه الأرض ليست أرضه؟ وهؤلاء الناس ليسوا بناسه؟

كان لا يزال في الرابعة والخمسين من العمر، لكنّ عنفوان شبابه سُرق منه. أذعن للأمر الواقع وشاخ بسرعةٍ وسمن بسرعة، ثم توقّف قلبه، هكذا دفعةً واحدة.

أُصيب بسكتة قلبيّة أنهت كلّ عدائات هذا القلب.

أذكر في بيت جدّي صينيّة فضّة. كانت تُصمَد متّكئةً على مرآة الدرسوار الكبير في غرفة الطعام. طُول الصينيّة حوالى مترين: لا يستطيع رجل واحد أن يحملها. يجب أن يحملها رجلان، كلّ من إحدى أذنيها. أضع كرسيًّا لأصعد إلى الدرسوار، وبسبّابتي الصغيرة أحاول أن أتهجّأ الكلام الذي حُفر بالأبيض على طول فضّة الصينيّة اللامعة:

هديّة من المفوّض السامي الجنرال غورو إلى الزعيم كامل بـ........ عربون صداقة ووفاء........

لم أكن أعي يومها كم كان ثمن هذه الصينيّة.



بعد وفاته تزوَّجت ابنتاه قبل مرور حداد الأربعين يوماً، ومن ثمّ زوجاته.

أَبتسِمُ قليلاً بشماتةٍ عندما أفكِّر أنّه، إبّان حياته، لم يكن أحد ليجرؤ على الكلام في الزواج من ابنتيه.

الابنة البكر، فاطمة جدَّتي، تزوَّجت من أحمد، ابن أخيه عبد اللطيف.

الابنة الثانية والصغرى خديجة، تزوَّجت من محمّد ابن أخيه محمود.

زوجته الثانية ابنة الباشا، تزوَّجت عبد اللطيف نفسه.

زوجته الأولى مريم العبد الله تزوّجت من أخيه محمود.





حتّى طليقته سكنة فقد تزوَّجها محمد ناصيف باشا الأسعد.

أذكر فستان عرس جدّتي الأسود اللون.

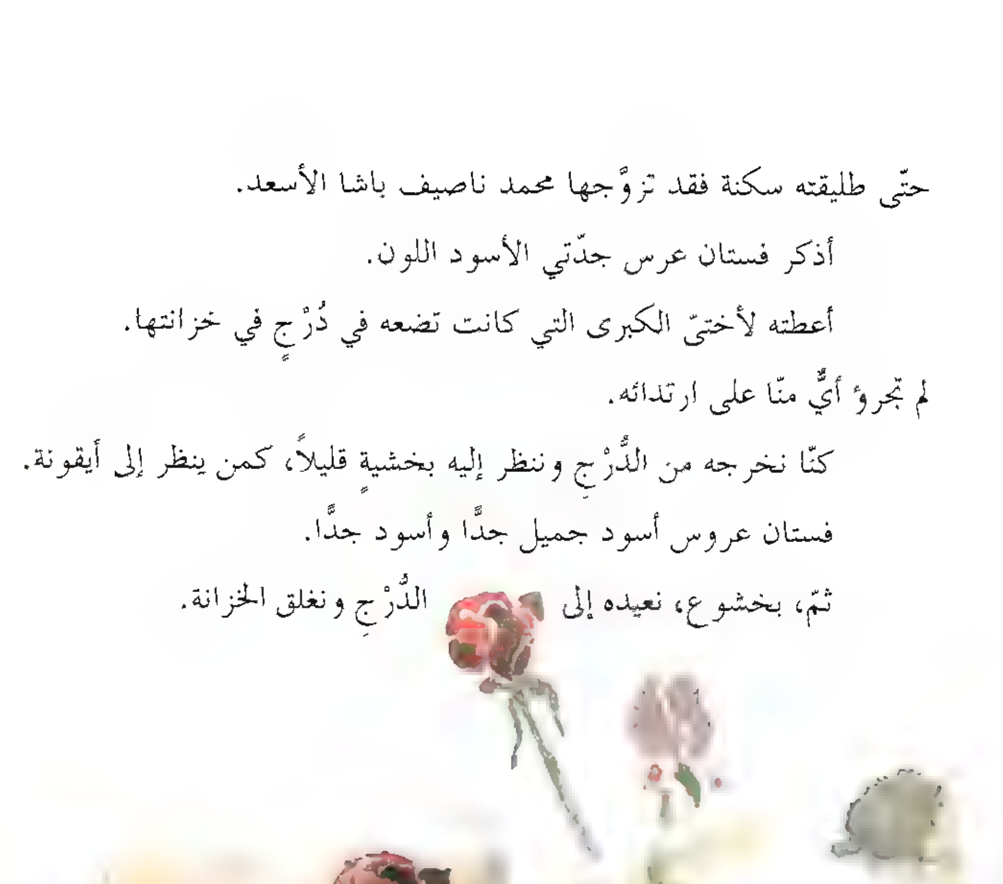
أعطته لأختيّ الكبرى التي كانت تضعه في دُرْجٍ في خزانتها.

لم تجرؤ أيٌّ منّا على ارتدائه.

كنّا نخرجه من الدُّرْجِ وننظر إليه بخشيةٍ قليلاً، كمن ينظر إلى أيقونة.

فستان عروس أسود جميل جدًّا وأسود جدًّا.

ثمّ، بخشوع، نعيده إلى الدُّرْجِ ونغلق الخزانة.



الصورة الأخيرة:
أدهم خنجر مَسُوقًا إلى الإعدام



وُلد أدهم عام ١٨٩٦ وهو ابن شبيب العليّ بن عليّ الفارس صاحب قلعة بلاد الشقيف، وائليّ أيضًا. كان طويل القامة، أخضر العينين، حليقًا ويتقن اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، إذ تخرَّج من الفرير في صيدا والأميركان في الميّة وميّه.

حَكَمَ عليه الفرنسيّون بالإعدام فرحل في زمن النفي. رحل بصحبة عبد اللطيف الأسعد ومحمّد التامر. كان متمرِّدًا مغوارًا حِيكت الحكاياتُ عن شجاعته بعد أن أذعن الجميع.

في حزيران من عام ١٩٢١، وفي أثناء مرور الجنرال غورو على مشارف القنيطرة في زيارة إلى آل الفاعور، كمن له أدهم وصديقه أحمد مريود، وأطلقا عليه وابلاً من الرصاص. أُصيب غورو برصاصة في كمّ ذراعه المبتورة! في حين قُتل أمينُ سرّه القومندان برانيه، وأُصيب مُرافقه آنذاك، حقّي بك العظم رئيس دولة سوريا،



برصاصةٍ في فخذه وأخرى في ذراعه وثالثةٍ في شفته.

وضع الفرنسيُّون مكافأة قدرها ٤٠٠٠ ليرة ذهبيَّة لمن يأتيهم بأدهم أو برأسه. وعندما التجأ أدهم إلى حمى سلطان الأطرش في جبل الدروز، وشى به متعب الأطرش فقبض عليه الفرنسيُّون، وهو يتناول الطعام أعزلَ في بيت سلطان باشا. كان لهذا الغدر "وقعٌ شديد على النّساء، فأخذن يقذفن الغادرين بأواني المنزل". احتجَز الفرنسيون أدهم في قلعة السويداء، فحاصرها رجال سلطان باشا ونحروا الخراف محاولين تسميم مائها، فقد ثارت نخوة سلطان باشا عندما علم أن أدهم قُبض عليه وهو في حِماه "فأضرم النار في منزله من فرط تأثُّره، وكسر أباريق القهوة كما يفعل عادةً فرسان العرب حين يعتدي أحد على حرماتهم المقدَّسة".

عندما نُقل أدهم بالطائرة إلى بيروت، وحوكم أمام مجلس عسكريٍّ فرنسيّ. فحُكم بإعدامه رميًا بالرصاص. رفض أدهم أن تُعصب عيناه عند تنفيذ الحكم.

دُفن في الباشورة، وعندما حاول الأهلون خطف الجثّة ليدفنوها كما يليق بها أطلق الفرنسيّون عليهم الرصاص فذهب عدد من القتلى والجرحى.

كان ذلك عام ١٩٢٣ وأدهم له من العمر سبعة وعشرون عامًا.

أدهم خنجر

الصورة الأخيرة: الملك فيصل الأول



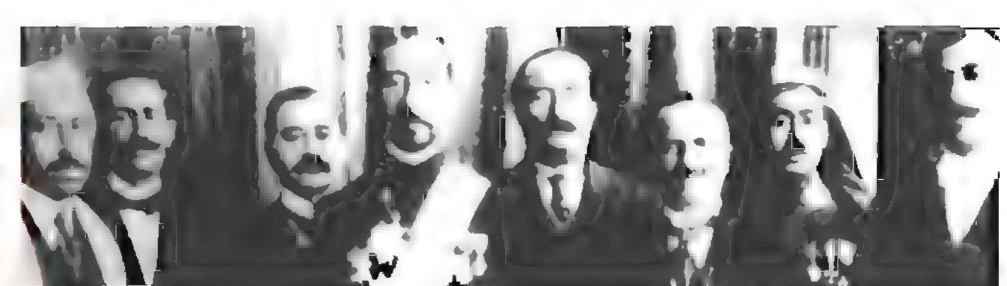
"أنا مرتاح، قمت بواجبي، خدمت الأمّة بكل قواي. ليسر الشعب بعدي بقوّة واتّحاد".

هذه كانت كلمات الملك فيصل بن الحسين الأخيرة، على فراش موته في ٧ أيلول من عام ١٩٣٣ وكان له من العمر ثمانية وأربعون عامًا.

تُوفّي فيصل وفاةً مفاجئة في غرفته في فندق "بيل فو" بمدينة برن السويسريّة. كان قد شرب الشاي قبل ذلك بساعات في أحد المقاهي. هل دُسّ له الزرنيخ في الشاي؟ إذ إنّه بعد ساعات أخذ يتقيّأ بشدّةٍ، وشعر بإعياءٍ وفراغِ معدةٍ بعدها، وفي الليل أسلم الروح.

فيصل بن الحسين كان رجلاً "ذا طبائع وأمزجة راوحت بين المجد واليأس" كان بهيّ الطلعة وسيمًا إلى درجة الجمال.





الملك فيصل مع بعض زعماء الثورة العربية و يبدو كامل القامة الأول الطويل على شمال فيصل

بماذا كان يفكّر وهو يُغْمِضُ عينيه اللتين بلون البندق لآخر مرّة.

هل تذكّر كيف دخل دمشق لأوّل مرّة في ٢تشرين الأوّل من عام ١٩١٨؟ يومها اخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال، على صهوة حصان عربيّ يحيط به ١٥٠٠ من فرسانه وعبيده، على خيولهم المطهّمة. استقبله العلماء والكبراء والأعيان. «ونثروا في طريقه الزهور والرياحين... زغردت نساء دمشق على طول الطريق ودُقّت طبول الأفراح». ثم كيف خرج منها أو أُجبر على الرحيل منها بعد هزيمة ميسلون أمام القوّات الفرنسيّة؟ لقد طاردوه بقراراتهم بوجوب رحيله السريع والمهين، بقراراتهم التي كانت تُمعِنُ في الإهانة كلّما ازداد تنازلاً.

خرج في قطار الفجر كما اللصوص في ٢٧ تمّوز١٩٢٠. ولم يكن برفقته إلاّ وزيرٌ واحد من وزرائه، هو ساطع الحصري. هل تذكّر وهو يغمض عينيه للمرة الأخيرة رفيق سلاحه وصديقه "لورنس العرب!" الذي أرسلته بريطانيا لمواكبته في حربه ضد العثمانيّين، ثم تخلّى عنه ليكتب في مذكراته (أعمدة الحكمة السبعة) بعدها بسنين: "إنّ صبره في ما يتعلّق بالوضع الزائف الذي كان يعيشه كان نافذاً، أو أنّه "قد شعر بالخجل من نفسه على مدى سنتين لأن أكون رفيقًا وزميلا!"

أفي هذا الكلام ما يكفي من السلوى! نوري السعيد حنّط جثّته بسرعة فائقة وقد أُسبلت يداه بأصابعهما الرقيقة على جَنْبَيْه. لعلّ رائحة موادّ التحنيط النفّاذة تستطيع أن تخفيَ رائحة الخديعة .



الفصل الثاني

زيحوا من الدرب، زيحوا
يدها تمر سلطانة
عليها خدّ وشل الندى
وشل صحن القيشاني

هذه الأبيات التي حفظتها من عمّتي، عن الجدّة الكبرى سلطانة، كانت تدور في رأسي بتكرارٍ إيقاعيّ لا فكاك منه. أردّد الأبيات مترنّمة، وأدور في البيت الكبير، قافزة على رِجلٍ واحدة كي يتناغم إيقاعُ إنشادي مع حركات جسدي.

لكن، عندما كانت سلطانة تأتي لزيارتنا، وكانت قد شاخت، وامتصّت السنون الندى من وجنتيها، كنت أقرّب وجهي من وجهها، وأفتح عينيّ على وسعيهما، ثمّ أغلق جفنيّ وأرفّ بهما، أحاول جاهدة أن أرى صحن القيشاني مختبئاً في تغضّنات ذلك الجلد.

كنّا نناديها عندها ستّي أمّ أحمد، وهي لم تكن حتى تحفل بمحاولاتي، لم تكن تبادلني نظراتي، إذ إن بصرها كان دائماً شاخصاً إلى البعيد، إلى هنالك، كانت أم أحمد تشعرني أنّها قد غافلتنا وعبَرت إلى مناطق في الزمان والمكان لا أستطيع أن أصلها مهما حاولت.

سلطانة، هي زوجة عبد اللطيف أخي كامل وأمّ أولاده الثلاث وبناته التسعة. قبل وفاة كامل كانت سلطانة إذا ما زارت عمرة الطيبة استقبلتها ابنة الباشا بالقول:

- طلّ القمر.

تبتسم سلطانة باعتداد وتجيب:

- طلّت الشمس.

وتدور الحوربة في العمرة:

سلطانة يابنت سهيل
ياضوّ القمر بالليل





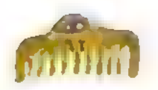
عندما توفيّ كامل، ترمّلت ابنة الباشا وكَثُر طلاّب يدها للزواج. إذ إنه الآن، إلى جانب جمالها وصيتها العطر، أضيف الإرث في الأملاك والأطيان.

ابنة الباشا ثابرت على الجلوس في نافذتها وقد تجلّلت الآن بسواد أثوابها ومنظارها الأصفر. وطلاّب يدها حاروا في التنازع على خطب ودّها. أرسلوا المراسيل، وبعثوا بالوسطاء في محاولاتٍ متتالية لكسب استئثارها.

عبد اللطيف، نفسه، نصب ديوان استقبالاته في ساحة العمرة، تحت نافذتها وفي مرمى رؤية منظارها. لم تأخذ ابنة الباشا وقتاً طويلاً للتفكير. اختارت عبد اللطيف، وانكفأ الآخرون، وتزوّجا.

عندما علمت سلطانة بأمر الزواج استشاطت غضباً وغيرة. لم تفهم كيف يفضّل عبد اللطيف عليها امرأة لا تُنجب. وعندما لم تستطع أن تتمالك غيظها، صعدت إلى العمرة، يحفّ بها بناتها السبع وهجمنَ على ابنة الباشا ودارت معركة عنيفة بالأيدي وتكسير ما تيسّر من الأثاث.

عبد اللطيف فضّ الاشتباك حينها، لكنّه انتهى - أي الاشتباك - إلى عداوة دامت إلى ما بعد وفاة المرأتين.





أسأل عمّتي، إذا كانت هذه الزيجات المتتالية والسريعة لنساء كامل بعد وفاته، محاولة لاحتواء إرثه الماليّ والعقاريّ الكبير. فهو كشيعيّ المذهب تذهب كلّ تركته شرعاً وحكراً إلى بناته وزوجاته فقط.

عمّتي تنظر إليّ مواربة عينيها، وكانها تخشى من سيّيء ظنوني.

تماطل في جوابها:

ـ ربّما، تردّد، ربّما، هذه كانت الأعراف.

ـ لماذا إذاً، جدّتي فاطمة، وابنة كامل الكبرى، أصرّت على أخذ زمام أمور التركة في يدها بالرغم من المحاذير؟ ألحّ في خبثي وسوء ظنوني.

ـ ربّما، ربّما، تردّد عمّتي ولا تنظر مباشرة إلى عينيّ.

جدّتي فاطمة كانت الأذكى والأقوى شكيمة. ربّما شعرت بأنّ رجال العائلة يحاولون الاستئثار بمسألة التصرّف بالأملاك والبيع والشراء. عندها قرّرت أن تبادر إلى أخذ حقوقها الشرعيّة بيدها مهما كانت العواقب.

في ليلة [illegible] خرجت فاطمة من عمرة الطيبة بدون استئذان من أيّ رجل [illegible] أحمد كان لا يزال طالباً في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

ارتدت [illegible]، عباءة فضفاضة وبراليم وفيشة سوداء شفّافة، مسدلة على [illegible] وجهها، [illegible] لا تستطيع أن تخفي بريق عينيها السوداوين ونفاذهما.

انطلقت على ظهر الخيل مع مرافقيها، من الطيبة إلى الخيام حيث اصطحبت معها من هناك ترجماناً من العربية إلى الفرنسية ثم أكملت مسيرتها إلى جديدة مرجعيون حيث كان مركز قيادة القوات الفرنسيّة.

أتمّت معاملات حصر الارث وتقسيمه بينها وبين أختها خديجة.

ـ كانت هذه هي المرّة الأولى التي يمدّ فيها جدّك يده على جدّتك.



ـ ضربها!؟

ـ ضربها بعد أن استدعوه من بيروت على عجلةٍ لإعلامه بالأمر الجلل!

فاطمة، ذات الشجاعة والعزم، ثابرت في عزيمتها. قسّمت تركة كامل بينها وبين أختها بتساوٍ تامّ.

قسّمت كلّ شيء، البيوت، الأراضي، الأرزاق، الأطيان، الأثاث والمقتنيات. لم يبقَ في النهاية إلاّ صحن قيشاني واحد. ففكّرت قليلاً ثمّ كسرته نصفين. استوت بعدها بقامتها الطويلة النحيلة كطائر أُطلق من أسرٍ، ثمّ رفعت يدها اليمنى بأصابعها الرقيقة وأعلنت بحزم:

ـ «هذه هي قسمة الحق».

هذه الحادثة، كرّست جدّتي، منذ ذلك التاريخ، كسيّدة العمرة المطاعة. أدرك بعدها الجميع، رجالاً ونساء، أنّه لا يمكن الاستهانة بها وبعزيمتها.

ومنذ ذلك الوقت وحتّى مماتها أضحت هي «الكلّ بالكلّ» وأرست قواعد الرهبة والاحترام الزائد في أصول التعامل معها. ولم يجرؤ أحد بعدها على أن يعتدي على حقوقها أو يبخس قيمتها.



بعد أن استقام الأمر لجدّتي، وأضحت آراؤها وقراراتها هي التي تسيّر أمور عمرة الطيبة الحياتيّة والسياسيّة، بدأ ظهور الصالحة.

كانت «الصالحة» تأتي من جهة القبلة، من البئر الفوقانية، وقد ارتدت من رأسها حتّى أخمص قدميها أبيض في أبيض.

كانت تمشي الهوينا، تنساب كمن يمشي في الهواء. هكذا رويداً رويداً ثمّ تدخل العمرة وتختفي.

ـ أسأل عمّتي عن شكل الصالحة.

ـ تشبه جدّتك تماماً، طويلة القامة نحيلة، لكنّها ترتدي الأبيض كمن يهمّ إلى الصلاة.

رآها الرجال ورأتها النساء. والكلّ أجمع على أنّها تبدو كتوأم جدّتي.

العمّة الكبرى، بقيت تنتظرها أيّاماً بلياليها، وعندما ظهرت لها، كما دائماً قادمة من البئر الفوقانية، واتّجهت نحو العمرة. تبعتها خطوة خطوة، لحقتها بعينيها ورؤوس أصابعها.



الصالحة كانت ترتدي الأبيض كعادتها وتحمل إبريق الوضوء.

العمّة الكبرى تبعتها، رأتها وهي تدخل البوّابة الرئيسيّة ورأتها وهي تنزل السلالم إلى الطابق الأرضيّ. بقيت عيناها معلّقتين ببياض قامتها، تبعتها وعيناها مفتوحتان على وسعيهما، معلّقتان بها كالخطّاف.

ولكنّها عندما وصلت أسفل الدرج

فجأة اختفت تماماً.

بحث الجميع عنها ولكنّها اختفت تماماً.

وتكرّر الظهور.

رأت جدّتي بعدها. أنّ لهذه الرؤى أمارات ودلالات يجب عدم الاستهانة بها، فأفردت في العمرة جناحاً كاملاً سُمّي بدار الصالحة. الجناح كان عبارة عن غرفتين ومطبخ وحمّام وشرفة، أُخليت تماماً من الأثاث ومُنع كائنٌ من كان، من الدخول إليها إلّا بعد خلع الحذاء عند الباب. أوكِلَ لمن كانت تكنّى بـ«الحاجّة طنجرة»مهمّة تنظيف المكان، كلّ يوم، وإضاءة مصباح الكاز ليلاً ليؤنس وحشة الليل.



عمّتي، نفسها، تذكر أنّها في صغرها لم تكن تُذعن أو تبالي لهذه الطقوس. كانت تدخل دار الصالحة بحذائها وتركض في الغرف لتصل إلى النافذة لترى ما يدور في ساحة العمرة. نافذة ابنة الباشا عينها ومنظارها الأصفر.

ـ لكن، وفي ليلة ليلاء، رأيت مناماً يا لطيف. تقول عمتي،

ـ بعدها أدركت أنّ الصالحة حقيقة

منذ ذلك الحلم، أخذت عمّتي تخلع حذاءها بخشوع كلّما دخلت الدار لتنظيف المكان وتُشعل مصباح الكاز.

ـ أسأل عمّتي عن المنام.

عمّتي لا تجيبني عن المنام. لكنّها تتابع وقد انخفض صوتها هامساً كمن يفشي سرّاً خطيراً:

ـ بعد ذلك بأعوام كثيرة في سنة ١٩٤٨، عندما أُحتلّت فلسطين جاء اليهود وزنّروا العمرة بالمتفجّرات ونسفوها.

دُمرت العمرة تماماً ما عدا ما كان يُدعى بدار الصالحة، بقيت صامدة. المتفجّرات التي وُضعت تحت أعمدتها لم تنفجر.

أتى اليهود إلى عمرة الطيبة لتفجيرها ليس ١٤ أيار والقمر فيه بدرٌ. العمرة كانت خالية من أهلها، إذ إن جدّتي وجدّي كانا في بيروت.

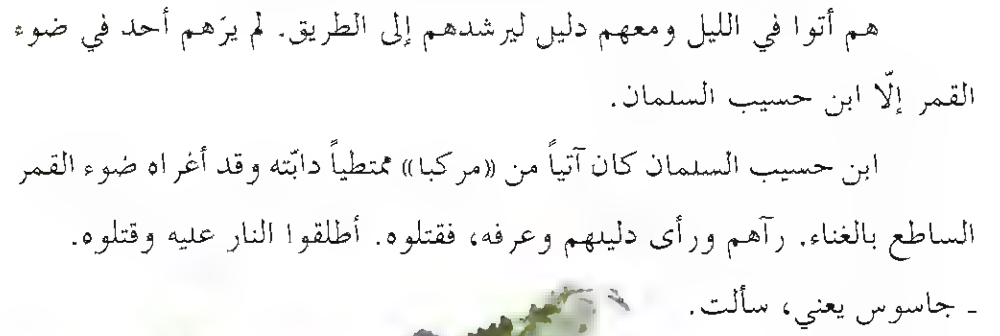
هم أتوا في الليل ومعهم دليل ليرشدهم إلى الطريق. لم يرَهم أحد في ضوء القمر إلّا ابن حسيب السلمان.

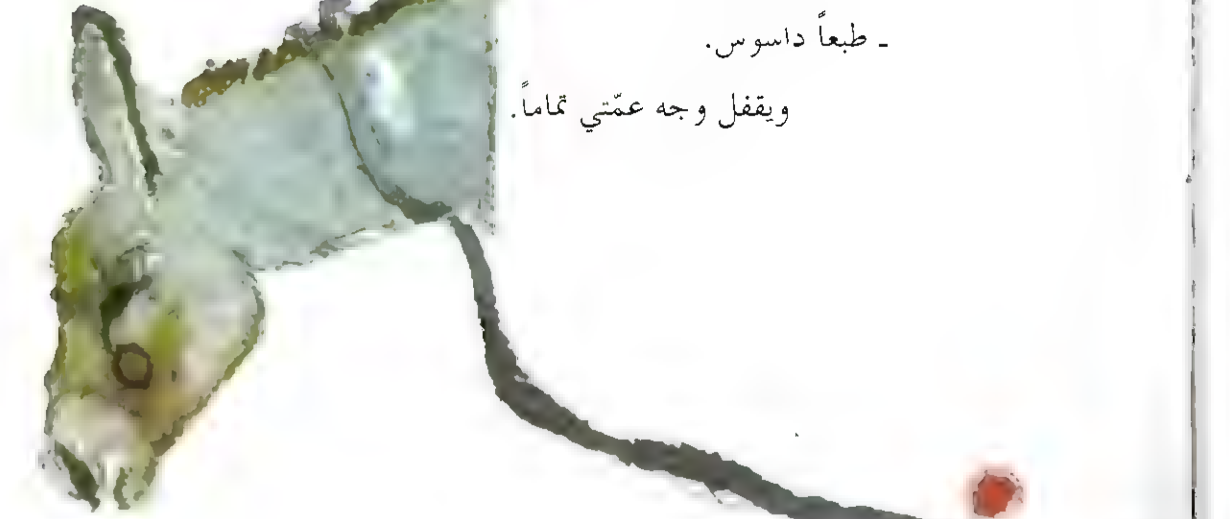
ابن حسيب السلمان كان آتياً من «مركبا» ممتطياً دابّته وقد أغراه ضوء القمر الساطع بالغناء. رآهم ورأى دليلهم وعرفه، فقتلوه. أطلقوا النار عليه وقتلوه.

ـ جاسوس يعني، سألت.

ـ طبعاً داسوس.

ويقفل وجه عمّتي تماماً.









تُحكم نبيهة عشيّة البيت الكبير منديلها الأبيض حول رأسها وتضرب كفّاً بكفّ، وقد بانت لثتها الزهريّة وضرسان من ذهب، قائلة:

ـ هذه الفتاة لا تنام. تبقى مستيقظة طوال الليل، وإذا نامت قليلاً تسرنم في نومها وتقوم وتمشي على حافّة الشرفة!

أنظر إلى حافّة الشرفة وأرتعد، التفّ حول جسد نبيهة المكتنز المستدير، ولا أذكر أنّي مشيت فوق الحافّة. أذكر فقط أنّ الليالي كانت بالنسبة إليّ مسلسلات من الرعب. عندما ينام إخوتي وكلّ أطفال العالم، كنت أبقى مستيقظة مسمّرة رعباً في فراشي. إذا كانت السماء تمطر، أو إذا كانت السماء تسطع بنور قمرها، كنت أبقى مستيقظة أرتجف وأسمع أصواتاً أحاول فكّ شيفرتها ولا أستطيع.

أشعر أنّ يداً سحرية تحاول شدّ اللحاف من فوق جسدي. أتشبّث باللحاف وقد اصطكّت أسناني وخدرت أصابعي. لا يتحرّك في جسدي إلّا عيناي، وقد شُلّت عضلاتي من الخوف. أسمع صوت المطر يطرق زجاج النوافذ بإلحاح وجنون، فأدور ببؤبؤ عيني جهة النافذة لأرى وجهاً مبهم المعالم معلّقاً فيها، ينظر إلى داخل الغرفة، إلى سريري بالذات، كتفاي تتحوّلان إلى لوحين من خشب. ويغرق ظهري في ارتعاش خوفه، ولا تبقى إلّا عيناي تجولان في محجريهما.

بعد وفاة عبد اللطيف نُقل جثمانه من المستشفى في بيروت إلى الطيبة، حيث دُفن في مقام بجانب العمرة قرب أخيه كامل.

مسافة الطريق من بيروت إلى الطيبة، حوالى ١٢٠ كلم طولاً. لكن مسيرة انتقال الجثمان دامت نهاراً كاملاً. إذ إن الجموع كانت تستوقف النعش عند كلّ بلدة و دسكرة بالهتاف:

مات الزعيم يحيي الزعيم أحمد، زعيم بلاد..

بعدها وبعد أن صار لزاماً على جدي أحمد أن يقوم بمهام مناصبه السياسية المتعددة، انتقل الجميع إلى بيروت.

كان البيت الكبير في بيروت يعجّ بساكنيه. ولم تكن حركة استقباله للزائرين والزائرات تهدأ على مدار الساعة. طوابقه الثلاثة وحديقته بمساحاتها الشاسعة أذكرها دائماً مترعة بناسها. الجميع في حال من الغليان الصاخب والمحموم وكأنّ كلّ فرد، أكان مقيماً أو زائراً، على شفير ما.

المقيمون، والزائرون في حركة دائبة من الكرّ والفرّ والاستنفار. لهاثهم وحماستهم في رواية الأحداث وتناقل الأخبار وتبادل الأحاسيس والعلاقات أسمعها حتى عندما أغلق عينيّ. عندما أفتحهما أرى الكلام يدور معربداً أمامهما كزوابع دائخة في دوران مكّوكيّ. ألتقط نمائمهم وأتلصّص عليها تصعد السلالم وتنزلها، تدخل في ثنايا الأرائك والستائر وتعشّش في الآذان وخصلات الشعر. ثمّ أفتحهما لأرى الآثار الطافحة على وجوه نساء البيت، من جرّائها، دهشة ومتعة وتشفّياً.





نساء البيت الكبير كنّ يدرنَ بالنمائم والدسائس كما يدرنَ بصواني الطعام والقهوة، فتختلط النكهات وتنتشر كروائح البخور. أشتمّها وأشعر بها تنغل في رأسي، وأسمع أصداءها تردّدها الجدران التي طالما ضاقت بأسرارها، فراحت ترجع صدى كلّ هذه المناكفات والصراعات والتناتش على الحظوة وعلى المكاسب.

كنت أتابعهنّ بحواسّي الخمس كدبيب نملات صغيرة تتمشّى على جلدي. أرى وأسمع وأشمّ أحاسيسهنّ وأحقادهنّ الصغيرة. وتملأ خياشيمي حتّى النخاع تلك الرائحة النفّاذة التي لم أستطع إغفالها: الغيرة.

كانت الغيرة ذلك المصل الذي تتغذى به شرايينهنّ من أجل المثابرة والاستمرار في تدبير المكائد والحرتقات، وإشعال نيران البغضاء والفتن والتنافس والسخرية والشماتة والغيبة ونظم القريض:

بَدّي قول جعيدية
عَصالحة وعاسنيّة
وعزم ما عاد فيّ
وطيّر عقلي من راسي
عقلي من راسي طيّر
وبيكفيني هالجراسة

سنيّة التي لم تتزوّج كانت دائماً تُفاخر الأخريات المتزوّجات، بأنّ عدم زواجها هو مكرمة من الله الذي اصطفاها لهذا القدر في هذه الحياة الدنيا كي يوفّرها للزواج من حوريّ في جنّات الخلد «أسنانه كاللؤلؤ المنثور».

تدير سنيّة عينيها في أترابها بازدراء وشماتة وتعلن :

ـ أنا زوجة الحوريّ. أمّا أنتنّ! فكلّ واحدة منكنّ سيلزمها زوجها إلى أبد الآبدين في الجنّة وقد شاخ وانتفخت كرشه وانطفأت عيناه ونخرت أسنانه الصفراء.

لكن سنية عندما شاخت وكبرت في السنّ وتعبت من انتظار الحوريّ، كانت تقفل على نفسها غرفتها طوال الليل والنهار وتجلس على فرشتها لتشاهد باستمرار أفلام الفيديو.

سنيّة كانت تحرص أن توصي السائق عندما يذهب لاستئجار الأفلام.

ـ أفلام جنس ورعب فقط. تقول، دائماً، بإصرار.





وسط كل هذا الصخب الدائر كعقارب ساعة لا تريد أن تتوقّف، كنت أحاول أبداً أن أجد لي مكاناً آمن إليه، فلم أكن أجد إلّا ذيول أثواب جدّتي ألوذ بها.

كنت أغنج مدلّلة في دفئها. وكانت هي تتقصّد أن تطعمني بيدها. وعندما ألتقط اللقمة أتقصّد أن ألمس بشفتيّ جلد أصابعها الطويلة الرقيقة. وكأنّنا، هي وأنا، كنّا نريد لكلّ قضمة أن تكون دمغة تؤكّد مدى ارتباطنا إحدانا بالأخرى، ارتباطاً أقوى من موتي أو موتها.





عندما أفتقدها، أصعد السلالم اللولبيّة إلى «غرفة الصلاة».

كانت «غرفة الصلاة» في الدور الثالث، غرفة صغيرة الحجم، مربّعة الشكل، هي المأوى الذي تلتجئ إليه جدّتي لتختلي بنفسها كلّما أرادت أن تنأى بها عن ضجيج البيت الكبير وما يدور فيه.

أرض الغرفة مغطّاة بالفرش، بمساندها المتّكئة على الجدران الأربعة، وما تبقّى من الأرض غُطّي بالسجّاد العجمي الصغير الحجم. على الجدران عُلّقت صورة الكعبة الشريفة ورسمٌ للإمام الحسين وإطار مستطيل في داخله قطعة من قماش المخمل الأسود طُرّز عليها بالخيط الفضّيّ رسم لسيف له لسانان كُتب تحته:

لا فتى إلا علي
لا سيف إلا ذو الفقار

في هذه الغرفة كانت جدّتي تعزل نفسها، تجلس على سجّادة صلاتها التي تفرشها في وسط الغرفة وقد وُضع قرص الصلاة الرمليّ مكان انحناء جبهتها عند السجود، وقربه سبحة ذات حبّات سوداء وشرّابة خضراء.



كانت تركع على سجّادتها هكذا لساعات وقد غامت عيناها، وهي في حال من الاستغراق التامّ.

ثم تقرأ في القرآن الكريم، أو في كتاب أدعية يلازمها دائماً يُدعى مفتاح الجنان.

لم يكن أحد يجرؤ على اقتحام هذه الخلوة إلّا المقرّبون لديها جدّاً. إذ إنّ ساعات انعزالها هذه كانت بمثابة استراحة المحارب لها من الشغب المستعر حولها، هي المثقلة بمسؤوليّة إدارة البيت الكبير وكلّ ما يتعلّق بمسيرته السياسيّة.

عندما كانت جدّتي تواجه صعاباً في تلك المسيرة، كنت أراها تطوي زندها الأيمن عند الكوع، وتتقي بقامتها الفارعة على الجدار، وقد وضعت وجهها في ثنيّة الزند.

أقف قربها، وأشخص بنظري إليها وقد تسرّب كمدها إلى كلّ مساميّ، لكنّي لا أجرؤ أن أنبس ببنت شفة، وأحار في رغبتي بمساندتها وعجزي وقلة حيلة صغر سنّي.

ثمّ، فجأةً، أراها تستوي بقامتها، وقد شمخت برأسها، ويعود ذلك البريق النافذ مشتعلاً في بؤبؤي عينيها السوداوين، وتقول حاسمة الموقف:

ـ أنا خادمة أهل البيت وهم لن يخذلوني، أعلم أنّهم لن يخذلوني.

تقصد جدّتي بـ «أهل البيت» أهل بيت النبيّ محمّد رسول **الله**، وبالتحديد، حفيده الحسين ومن كان معه في واقعة كربلاء.

كانت لجدّتي قناعة راسخة، لا تزحزحها الجبال ولا تزعزعها الشكوك، بأنّها هي إنمّا وُلدت في هذه الدنيا كي تقوم بخدمتهم، وتثابر في إحياء ذِكرهم، وإقامة شعائر عزائهم.





كلّ نهار جمعة، من كلّ أسبوع، وعلى مدار السنة تجلس جدّتي على فرشة، في غرفة استقبالها الدائمة، تحفّ بها النساء، كلّ واحدة منهنّ تجلس في مكان ومقام يحدد مكانتها الاجتماعية وقربها من حظوة جدّتي. يوضع كرسيّ من الخيزران بالقرب من باب الغرفة الموارب، يجلس عليه الشيخ خيل قارئ مجلس العزاء، الذي لا يكاد يبدأ التلاوة، بملزمتها الدائمة ويقول:

لى الله عليك يا سيدي ومولاي يا أبا عبد الله الحسين

روحي وأرواح العالمين لك الفدا يا أبا عبد الله

يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً

الكلمات هذه كانت الإشارة التي ينتظرنها جميعاً. إذ فجأة يبدأ النشيج والبكاء. وكأنّ مجاري دمعهنّ، على أهبة الاستعداد، تنتظر هذه العلامة كي تسيل أنهاراً.

أنظر إلى الشيخ خيل، في جبّته الداكنة، وذقنه النابتة وطربوشه الأحمر وقد لُفّت حوله كوفيّة مرقّطة بالأبيض والأصفر، وأسنانه الكبيرة الصفراء. أراه يميل بكرسيّه إلى الوراء، فترتفع قائمتا الكرسيّ الأماميّتان حتّى ليكاد يقع، وهو يتابع بنظراته صبيّة مرّت من أمامه، يلاحقها ببؤبؤي عينيه وقد جحظتا، وهو يتابع القراءة والنسوة يتابعنَ البكاء.

أحاول تقليد حركات الشيخ خيل، لألفت انتباه جدّتي فلا أفلح، فأنكفئ وأركّز نظري بضراوة على نقطة ما في الجدار أمامي، كي تدمع عيني، لأبدو وكأنّني أنا أبكي أيضاً، فلا أفلح... أيضاً. يسقط في يدي تماماً فأجلس مستكينة بين كلّ تلك النسوة في ثيابهنّ السوداء ودموعهنّ السخيّة، و أسلم أمري إلى **الله**.



حالة الاستنفار الكبرى في البيت الكبير، في ما عدا أيّام الانتخابات النيابيّة، كانت في الأيام العشرة الأولى من شهر محرّم أو ما يُسمّى بـ «عاشوراء». في هذه الأيّام العشرة، تقام شعائر إحياء لذكرى مقتل الحسين وأهله عام ٦١ للهجرة، في أرض كربلاء، ولم يمضِ على وفاة النبي محمد، جدّ الحسين، سوى خمسين عاماً.

في هذه الواقعة المشؤومة قُتل الحسين ظمآنَ هو وثمانية وسبعون من إخوته، وبنيه، وبني إخوته، وأبناء عمومته، وأصحابه ومناصريه. ثمّ سُبيت نساء النبيّ وأخذنَ في ركب تعس، إلى الكوفة ثمّ إلى دمشق ليرى إذلالهنّ في أسرهنّ يزيد بن معاوية.

البيت الكبير في هذه الأيّام العشرة، يبدو وكأن مسّاً كهربائياً ذا توتّر عالٍ قد أصابه، زائرات وزائرون كثر يتدفّقون، والمقيمات في هرولة للاستقبال وإدارة الشعائر. الجميع في حال من الكرّ والفرّ. والنساء زائرات ومقيمات، متّشحات بالسواد، وجوههنّ المغسولة تشي بحزن شديد، وعيونهنّ سبّاقة لإرسال الدمع عند تلاوة قصص القتل والسبي وكيف حوصر الحسين وأهله، وكيف مُنعوا من الوصول إلى الماء، ومن ثمّ كيف قُتل الرجال في المبارزات مع جيشٍ بلغ عدده، في بعض الروايات، عشرين ألفاً و أحياناً أكثر. ثمّ كيف قُطعت الرؤوس، وكيف سُبيت النساء.

جدّتي، ذات الهمّة، تدير الجميع. عزمها وحيويّتها يصبحان وقوداً، كي يمتثل الجميع وتجري الأمور كما تشاؤها أن تكون.

وَسيقَ الرّكبُ ...

وَعِند أطراف سَاحـ...

الرّكبُ بُرهةً ...

وَطيفَ بِرأسِ الحسَينِ فِـ...

مِنَ السّبايا الثّواكِل .. أينَ ...

أينَ الألوفُ الأ...

ليُناضِلوا معهُ في ...

وَتركَ مأمنهُ ...

وَسيقَت ...

الامَارة ، في ... لَم تَشهَد الدّنيا له

مِن قَبلُ وَلا ...

بَناتُ النّبي سبايا ، قَد حُمِلْنَ على أقتابِ الجِمَال بِغَيرِ وطَاء ، مُمزّقات الجيُوبِ حَواسِرِ الوُجُوه حَافِياتُ الأقدام ، يتَقدّمهُنّ حَملةُ الرؤوس عَلى أسِنّةِ الرّمَاح :

رُؤوس الحسَين وَثمانيَة وَسبْعينَ مِن إخوَتهِ وَبنيهِ وَبَني أخيهِ وَأبناءِ عُمومَتهِ وَأصحَابِه !

وَتُركت الجُثَث حَيثُ هِيَ عَلى السّاحَةِ المَشؤُومَة، مُلقاة بِالعَراء ، تسفي عَليهَا الرّيح الرمَال ، وَتحومُ عَليهَا جَوارِح الطّيرِ وَسِبَاعُ الجَو ، وَيرعى فيهَا وَحشُ الفَلاَة .

إبنة الشاطئ



في أيّام السنة الأخرى، لم يكن يغيب عن البيت الكبير أبداً ذكر أهل البيت ومآثرهم وقصصهم.

جدّتي تمرّر راحة يدها على جبينها باعتداد وهي تصف سُكينة ابنة الحسين وشمائلها.

ـ الحاجب والعين، بلون القهوة، تقول وكأنّها تفخر بمزايا من هي أقرب إليها من «حبل الوريد». وعندما تردّد قول الحسين: «إذا كان دين محمد لا يستقيم إلّا بموتي فيا سيوف خذيني»

تقولها وقد شحذت عنقها، بخيلاء، تشدّ على حروف خذيني وكأنها طائر حلّق في سماواتٍ لا يستطيع وصولها أحد. نبرة صوتها تشي برنين وحُرقة كما



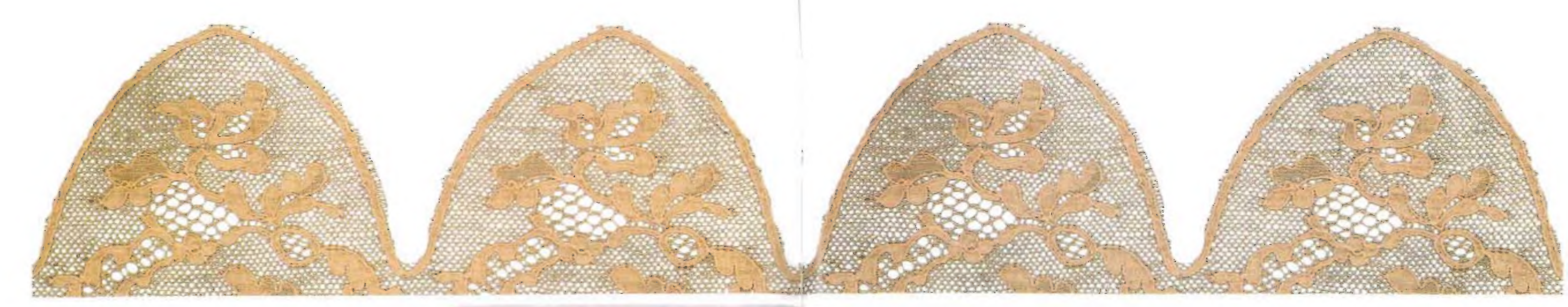
وأنّها، هي شخصياً قد شاركت في هذا القول، أو سمعته بأذنها من فم حفيد رسول الله.

لم أكن أنا أشذّ أبداً عن الاستكانة إلى ما علّمتني كي يبقى ذكرهم في قلبي كلّ يوم. كنت كلّما عطشت، فشربت، أتمتم لنفسي: «لعن الله من ظلم الحسين». وكأنني بقولي هذا أبرّر لنفسي ارتوائي عند العطش. أمّا إذا وجدت دعسوقة في الحديقة كنت أضعها على سبّابتي بحنان وأبقى أرنّم حتى تطير:

«بقرة الحسين طيري وسلميلي على الحسين»

وعندما تطير، أفرح وكأنها فعلاً ستطير إلى الحسين كي تحمل بفمها ماء تحاول جاهدة أن تُطفئ به عطشه.





اليوم الثامن من أيـام عاشوراء، هو ذكرى مقتل القاسم ابن الحسن أخي الحسين، وقد استشهد في أرض كربلاء وهو لم يبلغ الحلم بعد، وقيل إن الحسين كان قد خطبه إلى ابنته سكينة ذات الأربعة عشر ربيعاً، قبل ذلك بأيّام قليلة.

عمّتي كانت تمسرح دور سكينة، وكنّا نسمّيها في ذلك اليوم «عروسة القاسم» وهي تنظر إلينا وكأنّها لا ترانا، وتتحوّل يومها إلى فتاة لا تشبه نفسها.

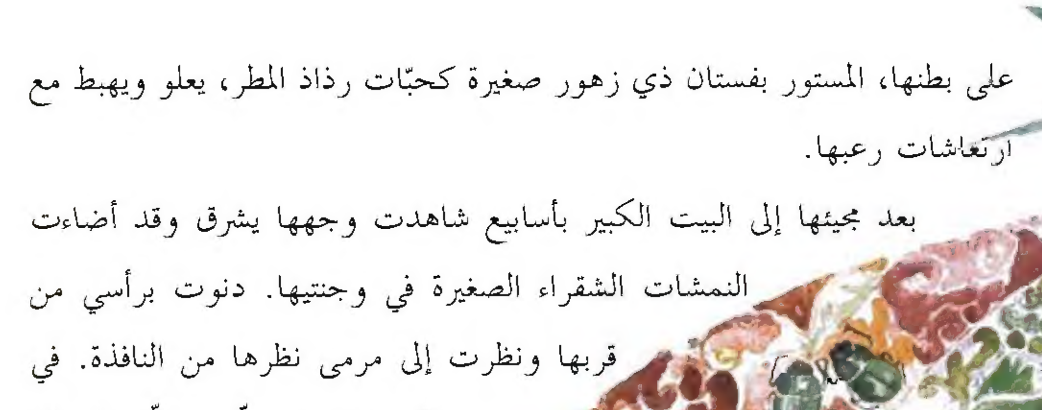
ترتدي عمّتي ثوباً هاشمياً أسود اللون، وتضع على جبينها عصبة عريضة من الساتان الأسود اللمّاع. تسدل على شعرها طرحة سوداء فتبدو كمن يمشي في غيمة سوداء شفّافة. تسير في المقدّمة وتتبعها الصبايا حاملات صواني كبيرة مستديرة وقد شُكّت فيها الشموع البيضاء المضاءة. في جبلات دائرية من الحنّة.

تصعد عمّتي إلى طاولة، مُتسربلة بحزنها وسوادها وتبدأ في إلقاء أبيات من الشعر تندب فيها موت رجال أهل البيت وأصحابهم، وتردّد وراءها الصبايا أبياتاً أخرى، ويبكي الجميع.

عريسي قاسم وين العرس وينا
وريت عرسك دايم
لتشوف سكنة بعينا

بعد انتهاء العرض كانت عمّتي تمشي بيننا وكأنّها تمشي في الهواء. أنظر إليها وكأنّها شيء ما ساحر من عالم آخر، وقد انعكس على بياض بشرتها لون طرحتها السوداء. وعلى خدّيها آثار مجريين مكان الدمع الذي سال بغزارة من عينيها الزرقاوين.





كان يوم الثامن من عاشوراء عندما أتت مهى للاحتماء بالبيت الكبير.

كانت في الرابعة عشرة من عمرها وقد انتفخ بطنها حتّى لم يعد بالإمكان التغاضي عنه.

مهى كانت حبلى بالحرام، وتبدو دائماً كعصفور مبلّل مذعور. تجلس على كرسيّ خيزران طوال النهار، تحدّق من النافذة.

أحدّق أنا فيها ويعتريني فضول غريب كي أعرف ما يدور في رأسها، خلف عينيها الساهمتين.

هل فعلاً كان اسمها مهى!

أذكر شكلها بوضوح غريب، وأذكر النمش الأشقر على جانبي أنفها.

وأذكر جفنيها العسليّين يرفّان بارتباك، كمن تذكّر شيئاً ما فجأة ثم عاد لينساه. تعود وتُطرق وتنظر إلى الخارج.

كانت مهى تضع كرسيّها بمحاذاة النافذة، وقد مدّت ساقيها على كرسيّ آخر، وقد ارتفع بطنها أمامها. أفكّر لو أن هناك نمشاً أشقر على بطنها، المستور بفستان ذي زهور صغيرة كحبّات رذاذ المطر، يعلو ويهبط مع ارتعاشات رعبها.

بعد مجيئها إلى البيت الكبير بأسابيع شاهدت وجهها يشرق وقد أضاءت النمشات الشقراء الصغيرة في وجنتيها. دنوت برأسي من قربها ونظرت إلى مرمى نظرها من النافذة. في حديقة البيت كان يتمشّى بتوتّر وارتباك صبيّ من عمرها، نحيل جداً، أكرت الشعر ويرتدي نظّارات طبيّة كبيرة.

بعدها علِمتُ أنه كان ابن عمّ مهى، جاء ليعلن مسؤوليته عن حملها ويطلب يدها للزواج.

جاء رجال عشيرة مهى وذهبَت معهم بعد أن وعد الرجال بأنّها لن تُمسّ بسوء.

مرّ شهران، ولم يذكر أحد مهى،بعدها علمتُ أنّها ماتت وهي تتلوّى ألماً بعد أن دسّت لها أمّها وأخواتها سمّ الفئران في طعامها.

ـ بقيت تتعذّب أسبوعين وتصرخ من الألم والخوف، وأمّها وشقيقاتها ينظرنَ إليها بشماتة. **ثم هكذا، ربّما تعبت فأغمضت رموشها العسليّة وماتت.**



في الثاني من شهر آذار من عام ١٩٧٨، كنّا أفراد العائلة وغير العائلة تفيض بنا الغرفة المجاورة، لغرفة جدّتي في مستشفى أوتيل ديو في بيروت.

إستدعتني جدّتي الى غرفة مرضِها. دخلتُ ورأيتُ جسدها النحيل ممدداً بإستكانة على سرير المستشفى الضيّق. بؤبؤا عينيها، كانا الوحيدان المتحرّكين في جسدها. شاخصين إلى النافذة، وقد مالت برأسها قليلاً الى الجهة اليمنى، وكأنّها تنظر الى الله. إقتربت منها، ورأيتُ أن العزم كان لا زال يشتعل في عينيها. قالت لي أنها لا تَثِقُ بأحدٍ غيري، وأنّ عليّ أن أذهب بنفسي إلى مختبر المستشفى، لآتيها بنتائج فحوص دمها. جسدها واهنّ، وصوتها خافتٌ جداً.

عندما أقتربُ من مرمى نظرها وتراني، يسيل من عينيها أنهارٌ من الحب والحنان، ثم تعود وتميل برأسها يميناً نحو النافذة وتنظر وكأنها تنتظر الله.

خرجتُ من الغرفة، وتركتها وحيدةً. رأيتُ الغرفة المجاورة، تَغلي بالزائرات، سُعار من النمائم الصغيرة والدسائس الصغيرة، وإنشغالٌ طاغٍ في إعلان حضورهنّ، أمام حضور السيِّد الطاغي بسُلُطاته.

وقفتُ بينهنّ وقد امتلكَني الخوف، عارية من شجاعتي ومنها. كنتُ في السابق، عندما أجبن، أختبئ في ثنية ثوبها، في عُقلة إصبعها، في خصلةً من شعرها، أو في أحد رموش عينيها. الآن أصبحت بِلا ملاذ. حملتُ وحشتي وخُذُلاني وجُبني وذهبتُ إلى البيت.

لم أذهب إلى المختبر

في الصّباح إتّصلت أختي الصُغرى تلفونياً، وقالت لي أنّ جدتي، قد نظرت نظراتها الاخيرة الى النافذة، ورَحَلَتْ.

تلك الليلة، وأنا احاول النوم، بين تعبي ودموعي، عَبَقَت الغرفة برائحتها. شعرتُ بيديها الرَخصتين تضمانني من الخلف. لحظةً واختفتْ.

موكب تشييعها، في اليوم التالي، الى مقام السيدة زينب في دمشق، كان طويلاً جداً. محفوفاً ببشر كثيرين في السيارات المواكبة، وكثيرين على الطرقات.

عندما وصلنا المقام، قالوا أنه غير مسموحٍ للنساء أن يتبعن النعش الى مكان الدفن. بقيت النساء في حضرة المقام.

لغطهنّ احاطني ثانيةً، فانفصلتُ عن الجميع وجلستُ وحدي، على دكّة احدى نوافذ المقام. كنتُ أريدُ أن أرى النعش لأطول وقت ممكن، وقد حمله أربعمائة من علماء الشيعة إلى مثواه الأخير في غرفة صغيرة تخصُّها وحدها، في أحد جوانب فناء المقام.

رأيتها تختفي قليلاً، قليلاً من أمام ناظريّ

كنت ألوّح لها بيدي سرّاً و أتمتم أودّعها بدمعي وشفتيّ.

لم يكن يرانا آنذاك ، هي وأنا والجميع، إلاّ السيّد الأكبر.



المتاهة والهجر سيرتان تجاورتا ليس لأنّهما فقط، تخشيان الوحدة، ولكن لأنّ بينهما إمكانيّة أن تظلاّ بعيدتين كأن إحداهما شرق الروح والأخرى غربها، إمكانية أن تنفصلا إنفصال قطيعةً، وتبحث كلٌّ منهما عن كتابها الذي يخصُّها، فهما سيرتان قد تختلفان فيما تتفقان فيه وقد تتفقان فيما تختلفان فيه.

إسكافي المتاهة، هو الشاعر الذي يُصلَح اللغة ويصنع قوالبها، وهو الراوي الذي يخترع الحكايات ويؤلّفها ويخلقها من عدم. والهجر الذي ظلّ أقرب الى الرسامة من حبل وريدها وظلّ حلمُها الطائف حولها، عادت وصنعتهُ ثم عادت وتركتهُ يعوم في هواء بعيد، ليس كأنه ماضيها ولكن كأنه ظلّها.

السيرتان معاً لا تنشغلان بدقة الخيال، وتحسبان أن ما لم يحدث قطّ قد حدث، وأن ما حدث لم يحدث قطّ. الذاتُ في الهجر محفورةٌ بنواميسها وطقوسها وغموضها، والذات في المتاهة تنغمر داخل واحات وصحراوات لا وجود لها، تنغمر بشموسٍ صغيرةٍ وأقمارٍ مثل حَبِّ البنات.

المتاهة هي مرآة الهجر ونقيضه فيما الهجر نقيض المتاهة ومرآتها.

السيرتان بينهما جسر مجهول، يجتازه المولود والمفقود والعابر حافياً والعابرُ بنعالٍ والموجودُ والتائه وذوو الحاجة وغير ذوي الحاجة، إنهما سيرتان في سرابٍ واحدٍ أو في سرابين إثنين أو في أسربةٍ لا آخر لها.